Diwan al Arab
منبر حر
للثقافة والفكر والأدب

ديوان العرب تقدم لكم

الخـجـول فـي مدرسة الأوغاد

رواية قصيرة

المـُهلَّب مِرهِج

-إن مشكلة هذا العالم أن الحمقى والمتعصبين غالباً ما يثقون بأنفسهم، بينما العقلاء والأذكياء يعانون شكاً في قدراتهم.

برترالد راسل

كاتب وفيلسوف ورياضي إنجليزي

مقدمة الكاتب:

بينما كنت أتمشى على سطح منزلنا المتربع في قرية البويتات (وهي قرية لطيفة وجميلة وهواءها منعش للغاية، من قرى ريف جبلة) شعرت برغبة جامحة في كتابة رواية - كما هي عادتي- وكما تقول لي أمي دوماً:

-يا إلهي منك!! أنت يا مُهلّب مُتعِبٌ جداً، لا تأتيك الرغبات الجامحة في كتابة الروايات إلا عند الامتحانات!!

وحقاً كانت لدي وقتئذ امتحانات نظرية للسنة الأولى –فصل ثاني، في كلية الزراعة.

لكن، على الرغم من ذلك، تلك الرغبة اشتعلت في داخلي، وتسارعت نبضات قلبي، شعرت كأنني سأموت إن لم أكتب رواية عما قريب، فكرت: عن ماذا سأكتب؟ هل أكتب عن شاب يحب فتاة؟ مللنا هذه القصص. هل أكتب عن جريمة مثلاً؟ لا، ليس ذلك ما يجول بخاطري الآن. حسناً، هل أكتب عن الخيال العلمي؟ أيضاً ليس لدي تفكير حالي بشيء من هذا القبيل، فكرت أكثر، وتعمقت، شعرت، أبحرت في هذا العالم بحثاً عن شيء مهم، أريد أن أقدم شيئاً واقعياً أحترم فيه الإنسان، وأخيراً عنّت ببالي الكتابة عن الخجل، وبالأخص عن الإنسان الخجول (والمتعتع في الكلام) . رأيت : كيف يسخر الناس منه، وكيف ينتقص أصدقاءه من قيمته، وكيف يتعرض للضغط النفسي والاجتماعي، غصت في معاناة هذا الإنسان الذي يستحق حقاً الاحترام منا، فوضعت هذا الكتاب.

المـُهلَّب مِرهِج

1

مما لا شك فيه أنني إنسان أحمق، إلا أن آخر دكتور نفسي زرته قال لي أن الخجل يدل على الذكاء، لم يكتف بذلك وحده، بل قال أيضاً أن الأذكياء يشكّون في قدراتهم كما قال برترالد راسل.

وأنا –مع احترامي الكامل لشخصه الكريم-أريد أن أقول له أنني لا أظن الأذكياء خجالى ، فهم لو كانوا أذكياء حقاً كما يدّعون لاستطاعوا أن يكسبوا الجرأة على الأقل. وفي نفس الوقت أيضاً أريد أن أذكره بأن العظماء جميعهم وثقوا بقدراتهم حتى وصلوا إلى العظمة، ولم يكونوا يشكون في أنهم سيصلون يوماً إلى النجاح.

ومما لا شك فيه أيضاً أنني ذلك الإنسان العاجز ، المحطم، المنفي.

أريد أن أقول لك أكثر من ذلك، وعليك أن تتحملني حتى آخر حرف أرويه لك.

بالطبع تريد أن تسألني عن أموري الخاصة: أين ولدت؟ ما اسمي؟ ما هي الأشياء التي أحبها وما هي التي أكرهها؟ كيف أحب السمك مقلياً أم مشوياً؟ أو كيف أفضل نوع فرشاة الأسنان ، وحتى أنك قد تريد مني إخبارك عن نوع المرحاض المفضل لدي إن كان عربياً أم فرنجياً، بالطبع تريد مني ذلك، فأنا أعرف عقليتك وعقلية أمثالك.

على أية حال، إذا كنت لا تطلب مني ذلك فعندها سأقول لك أنك حقاً إنسان نادر، فحافظ على ندرة تفكيرك.

نشأت وترعرعت في القطيلبية، قد لا تعرفها، بشكل أوضح : أشك أنك ستعرفها، فهي تلك المنطقة القروية البدائية ذات العقلية القبلية للسكان والشكل الظاهري الذي يكون أقرب إلى الدَّقة القديمة.

تتساءل في قرارة نفسك: بماذا سأحدثك؟ والجواب : عني، بالطبع سأحدثك عن إنساني الكريه الذي لم أجد له دواء وتفسيراً حتى الآن، وعجز الأطباء النفسيون عن فهم المسكين الذي يسكن داخلي، ولم تقدر حتى أمي التي هي مسكينة أكثر مني-على فعل أي شيء بخصوص المعاناة التي تجتاحني، وسأذكر لك بعضاً من تلك المواقف التي مررت بها في حياتي: المملة، التعسة، البائسة، ولن أنسى الطريفة حتى لا أرفع لك ضغطك أو أسبب لك الحمى أو القشعريرة أو هشاشة في العظام، ولن أنسى أن أقول لك : إذا كُنتَ متهكماً، فما سأرويه لن يتناسب معك. الناس يكرهون المنطوي فإن كنت منهم لا تقرأ لي، لا أتهمك، ولا أريد أن أزعجك أيضاً.

اسمي غريب جداً ، لدرجة أنني كرهت الساعة التي أسماني فيها أبي "بندق" ، أؤكد لك أن هذا هو اسمي، فلا ترسم تلك الابتسامة المشمئزة النافرة لمجرد سماعك بهذا الاسم كما فعل الكثيرون في حياتي، ولا تطلب مني الهوية لتتأكد من ذلك فأنت تقرأ لي الآن ولكنني لست إلى جانبك.

يا للسخف! لن أتمكن عندها من إعطائك هويتي، وحتى رخصة قيادة فأنا لم أتعلم القيادة بعد، ولا أية شهادة أضعها بين يديك فأنا ما زلت في الصف التاسع وأدرس فيه. ذلك الاسم هو اسمي، سواء شئتُ أم أبيت، أو شئتَ أنت أو أبيت ، وقد سبب لي الكثير من

المشاكل في حياتي مع أصدقائي ومع جميع من تعرفوا علي خلال حياتي اللعينة.

كان على أبي أن يسميني أحمد، أو علي، أو حتى جلنار، ولكن لم يكن عليه أن يسميني بندق على الإطلاق، لكن هذا كان قدري الذي لا مفر منه ولا مهرب، وليس هنالك من سبيل لتجاوز هذا الاسم الفظيع.

مثلاً، أمي تدعى "سنا" ، أبي يدعى "هاشم" ، أخي يدعى "عباد" ، صديقي في الصف التاسع يدعى "باسل" ، وأنا الوحيد الذي أدعى بندق!

ما عليك من اسمي، دعني أخبرك عن والديّ ، أمي تعمل معلمة رياضيات في مدرسة ثانوية في مدينة جبلة، ولم ينقلوها إلى منطقة قريبة من مكان إقامتها، وهي بالتأكيد تحبني إلى تلك الدرجة التي تستعد فيها لفعل أي شيء من أجلي، ولكن لن أقول لك أنها مستعدة لفعل أي شيء يسعدني، وهي طيبة جداً، بلهاء في تصرفاتها أحياناً وهذا ما يجعلني أحبها على الرغم من كل أفعالها التي لم تعجبني. فطيبة إنسان ما تجعلك تحبه حتى لو كان أكثر من لا تعجبك تصرفاته.

وأبي، كان يعمل ضابطاً فتقاعد، وهو الآن يجلس في المنزل بلا عمل إلا توبيخي المستمر وإزعاجي وإرغامي على ما لا أريد القيام به، أضف إلى ذلك انتقادي وتهميش شخصيتي على نحو كبير.

أما أخي، فهو شيء لا يمكنني أن أصفه لك مجرد الوصف على الورق، ليس من ناحية التهذيب بل من ناحية عدم التهذيب، وما يجعلني أصاب بقرحة هو أنه أكبر مني، ولا يحق لي التذمر مهما فعل من أشياء غبية وساذجة وسخيفة، بل مهما فعل من أشياء قذرة

أيضاً. وأود أن أخبرك أن الأشياء القذرة التي يفعلها أكثر من الأشياء الجيدة. سأسرد لك بعضاً من الأمور التي حدثت معي من الصف الخامس وحتى الصف السادس ، بالإضافة إلى المواقف التي تخرج عن سياق المدرسة والتي تركت فيّ أثراً رهيباً جعل شخصيتي على ما هي عليه الآن.

هذه الرسالة كتبتها لك بعد إتمامي للصف السادس.

3\6\2009م

بندق

2

عندما كنت في الصف الخامس الابتدائي، طلبت مني المعلمة سميرة ذات الجثة الضخمة والشعر المنفوش والتنورة الطويلة أن أقرأ لها القصيدة التي أخذناها في درس سابق، فتسارعت نبضات قلبي وأنا أجلس على مقعدي البالي ، وارتعش جسدي وارتبكت.

لكنني لا أستطيع أن أقول لها أن تقرأ القصيدة بنفسها أو أن تكلف أحداً آخر بفعل ذلك، فهي أولاً ليست من تلك النوعيات التي تسمح لطالب لا يحفظ دروسه ، بالجلوس. وثانياً فهي تتقصدني في كل مرة كأنني الطالب الوحيد الذي عليه أن يُسمّع بالدرس.

هل أقول لها أنني خجول ولا أستطيع القراءة أمام حشد من الطلاب؟ أم أقول لها أنني لم أحفظ الدرس؟ لكنني حفظته حقاً! وتعبت فيه حتى تمكنت ذاكرتي من تخزينه بشكل باهر، لقد أعدته أكثر من عشرين مرة! فلماذا الآن أنا خائف؟ لماذا لا يمكنني النطق؟ لماذا تعجز شفتاي عن استخراج كلمة واحدة بشكل جيد؟

شعرت أنني سأتلبك ،لا، بالفعل إنني سأتلبك، متيقن من ذلك، ولن أستطيع قول كلمة واحدة على نحو سليم، مع أنني قرأت القصيدة كاملة لأمي في المنزل دون خطأ لفظي واحد.

مهلاً! الأشياء لا تسير كما يريد الإنسان في العادة! حتى كبار قادة المعارك والغزوات حدثت لهم أشياء لم يتوقعوها فمن أنا حتى يستجيب القدر لكل توقعاتي؟ نابليون بونابرت نفسه ، وعلى الرغم من عبقريته في لعبة الشطرنج وفي الفلسفة إلا أنه حظي بما لم يتوقعه في الكثير من معاركه، فمن أنا لتحدث الأشياء التي أتوقعها؟ أكد لي ذلك أنني لن أتمكن من قراءة القصيدة.

لكنني سأحاول! فالقادة أيضاً حاولوا! على الرغم من ذلك، ما الذي سيضمن لي نجاحي؟ بصراحة : لا شيء.

-د د د د.. دو ري ... ح ح ح حول...

ليتني لم أفكر بقول شيء على الإطلاق، ليتني لم أنطق بحرف من هذا الفم اللعين، لكنني قلت تلك الكلمات المبعثرة المبهمة والعرق يسيل من على وجهي، وعيني مغمضتين. شعرت كأن ما حولي يدور كما تدور المركبة التي تحدث عنها سليمان العيسى، هنا، في هذه القصيدة.

ضحكت المعلمة وشفاهها تكاد تتشقق، والطلاب يمسكون خواصرهم حرصاً عليها من أن تطق، شعرت وكأنني إنسان مستحقر إلى أبعد الحدود، ما المعنى من أن أحفظ قصيدة وأن لا أستطيع إلقاءها؟ ما المعنى مني؟ كيف سيتمكن إنسان بائس مثلي من العيش في الحياة إن لم يستطع فعل أقل شيء ممكن..!!؟؟

-اجلس .. اجلس..

قالت المعلمة وهي تنظر ساخرة إلي.

-إنه لا يستطيع الكلام يا معلمة!

هذا ما قاله الصبي الذي يجلس إلى المقعد الذي بجانبي من اليمين، وهو أمجد، لم يتركني وشأني مذ أن كنت في الصف الأول، وفي مرات عديدة كان يضربني أشد الضرب على رأسي وبطني ، وذات يوم أدماني في المنطقة قرب فمي لأنه أوقعني على الدرج، لكن المعلمة لم تفعل شيئاً إلا توبيخه بشكل لطيف، لدرجة أنك إذا رأيتها وهي توبخه ستشعر وكأنها تأمره بفعل المزيد.

وها هو يغتنم الفرصة لضربي معنوياً بدلاً من أن يضربني على جسدي، صدقني حين أقول لك أن الضرب المعنوي أقوى من الضرب الجسدي، فالجسدي يزول بزوال الإصابة والجرح، وأما المعنوي فيستمر إلى الأبد.

-ليست مشكلة..

قالت المعلمة وطلبت من أمجد أن يقرأ القصيدة.

-دوري ، دوري حول القمر

يا حاملة حلم البشر

دوري ، وارسي فوق القمر

يا مركبة العقل الباهر

يا أسطورة..*

إنه يلقيها دون أن يتلبّك، تصوروا! تخيلوا أنه استطاع أن يفعل ما عجزت أنا عن القيام به! كيف قدر على فعل ذلك؟ الأكثر من ذلك، كيف تجرأ بهذه السهولة وألقاها أمام خمس وعشرين طالباً؟ دون وقوف! دون عرق! ودون أدنى تفكير منه في أنه سيخجل أو يتلعثم أو يهوي؟

لم يكتفي بذلك، بل إنه ينظر إلي بين كل سطر وآخر يلقيه وفي عينيه ما يقول لي : انظر إليّ .. أنا الذي فعلت! وأنت الذي لم تفعل! أنا الذي قرأت بقوة وأنت الذي قرأت بضعف! بحلق فيّ أكثر واعرف أنك إنسان عاجز. صدقني حين أقول لك أن هذا ما تقوله عينيه بشكل واضح.

صفقت المعلمة ، صفق الطلاب.

منذ ذلك اليوم وأنا لم أقدر على التماسك بأعصابي، ولم أستطع أن أقرأ شيئاً أمام جمهور على الإطلاق. بصدق كنت أشعر وكأنني سأموت كل مرة يُطلب مني إلقاء شيء أمام الطلاب.

*: قصيدة للشاعر سليمان العيسى.

3

البيت الذي أسكنه ممل جداً، ربما لم أشعر يوماً بالتسلية فيه ولم أنحت أية ذكريات جميلة تتعلق به ، ولهذا أصفه بذلك، متواضع، مبني من الاسمنت كما هي البيوت الأخرى لكنه ليس مدهوناً، وعندما تراه تشعر كأنه علبة كبريت فارغة لا قيمة لها، وإنني، إلى حد كبير، لم أشعر يوماً بالحياة التي أريد أن أشعر بها وأنا أسكنه، أخي لم يكن يعطيني أية أهمية تذكر، كل ما يحبه كان الجلوس مع صديقه القذر جبور. آه ثم آه إذا كنت سأحدثك عن هذا الصديق الذي يشبه كل شيء إلا الصديق، بل إنني أصدقك القول إذا أخبرتك أن جبور أكبر قذر عرفته البشرية، مذ أن تعرف عليه أخي وتحول حاله إلى الأسوأ على الرغم من أنه كان جيداً في البداية، فالسوء يأتي من حيث لا تحتسب الأنفس، السوء كالشيطان تماماً يهب من حيث لا يدري الإنسان، يستغل تلك الأوقات التي يشعر فيها الواحد منا بأنه لا يخطئ أبداً، فيأتي ويلعب بنا على هواه.

لطالما أخبرت أخي أن جبور صديق سيء فما كان ليعطيني انتباهاً، أول مرة تعرف أخي على جبور كان عندها في الصف الخامس، وقد بدأ أخي العطوف شيئاً فشيئاً يصبح قاسي القلب علي، وغدا من أولئك الذين يسخرون دوماً ممن حولهم ويقهقهون بصوت عال وخال من اللباقة، بل إنه ضرب أمي ذات يوم عندما صار في الصف الثامن وجعلها تبكي ثم راح آخذاً معه النقود التي سرقها من حقيبتها إلى حيث سيعربد مع جبور ورفاقه، شعرت آنذاك بالحقد عليه، ولم أدري لماذا لم أتمكن من التخلص من هذا الحقد حتى الآن، نظراته وهو يضرب أمي تلك الضربة على كتفها ليبعدها

عنه، طريقة صراخه، تعابير وجهه.. كل شيء فيه أذكره حتى الآن ولا أستطيع النسيان مهما حاولت.

حينها هبيت لأوقفه وآخذ المال منه لكنه ردعني فارتميت على الأرض أبكي. قامت أمي لتواسيني. أبي لم يكن آنذاك في البيت لأنه ما زال في عمله ولم يتقاعد بعد.

عندما كان عباد في الصف الثامن ما كنت أنا إلا فرخاً صغيراً، بالكاد أصل بطولي حتى صدره. أصبح شرساً، وتلك الشراسة ازدادت يوماً بعد يوم، لم أشعر بعد ذلك بأنه أخي الذي ولد في نفس البطن الذي ولدت فيه. كنت أشعر كأنه مخلوق فضائي قادم من كوكب آخر تماماً، صدقني حين أقول لك ذلك. أود أن أقول لك، أن حياتي أشبه باللعبة التي يلعب بها الآخرون، انطلاقاً من أخي مروراً بأصدقائي وانتهاء بالأناس العاديين.

4

ذات يوم ماطر يطرق المطر فيه بلور نوافذ غرفة الصف، كنت أحضر حصة اللغة العربية التي تعطينا إياها الآنسة دارين، وما زلت في صفي الخامس، عندها كانت دارين تمشي وتطقطق بكعبها العالي في أرض الغرفة، وتمسك بيدها اليمنى قطعة الطبشور ، وبيدها اليسرى مروحة، مرتدية لباساً يجعلها نصف عارية، صحيح أنها جميلة ولكنني لا أظن الجميلات بحاجة لأن يخلعن نصف ملابسهن ليثبتن أنهن جميلات، ودارين كانت من تلك النوعية، فهي ما زالت في الخامسة والعشرين، كانت دوماً عندما تمل تتجه نحوي وتلعب بشعري فتبعثره، تظن في نفسها أنني سعيد بذلك، أو تقوم بالعبث بوجهي وحك مناطق معينة من جسدي كأنني لعبة بين يديها، أو تأخذ أقلامي و دفاتري من على مقعدي لكي تستخدمها في أعمالها الشخصية، لكنني لن أقول عنها إلا أنها قاتلة للأعصاب بأسلوبها وليست طريفة، لا أتذكر أنها كانت طريفة يوماً معي، ولا أشعر بأنها تحبني من أعماق قلبها ولا أظن أنها كانت تعيرني انتباهاً لأنني ذلك الإنسان المهم في نظرها، لكن الجميل فيها أنها لم تكن بهيمة كما كانت سميرة التي تأخذ قلمي باستمرار (مصرة على انتقائه إن كان جديداً) لتنظف به أذنها المتسخة.

سيدي الكريم ، سألتنا دارين سؤالاً عن الدرس الذي تعطيه.

-من يذكر لي منكم كان وأخواتها؟

سألَت مع أننا لم نأخذ الدرس بعد، لا أحد قد رفع يده.

خيم الصمت على الغرفة، بدت وكأنها غرفة مهجورة منذ زمن بعيد، فعندما يتعلق الأمر بالعلم جميعنا نكون صامتين، شعرت

بضيق ، وبرغبة جامحة في الذهاب إلى الحمام، كنت محصوراً ولم أستطع تدارك نفسي فرفعت يدي لها أريد استئذانها.

بدت عليها الدهشة، نظرت إلي وكأنني أعرف جواب السؤال، تقول في نفسها "هذا هو الذي يعرف الجواب.. عثرت عليه!" ، لكنني خنت توقعاتها.

-هل تسمحين لي بالذهاب إلى الحمام؟

ضحك الجميع، تنهدت المعلمة.

-يمكنك الذهاب.

رسمت تعابير الخيبة على وجهها. قمت عن المعقد حتى أنني كنت أريد الركض بسبب ما أشعر به من حصر، فكرت في أنني سأصاب بحصر بولي. الجميع يضحكون ولا يتوقفون عن الضحك ولو قليلاً. لا يمكن لهم إلا أن يسخروا مني فقط لأنني رفعت يدي أثناء طرح المعلمة لسؤال. ولأخبرها بأنني أريد الذهاب إلى الحمام!

5

قد أكون بالنسبة لك إنساناً وضيعاً، ولن أختلف معك في ذلك، فأنا حقاً أشعر بأنني عدم في حياة مليئة بالجمال والمتعة والرفاه. رفاقي سعداء، أقربائي قادرون على إنجاز كل شيء. من حولي يستطيعون إنجاز الأشياء التي لا أستطيع إنجازها، وأما أنا فأبقى ذلك الإنسان العاجز عن فعل أتفه الأشياء فقط بسبب خجلي. أتعتع في الكلام، أتلعثم، أتلخبط، قلها كما تريد، وفي الحقيقة فإن جميع الأطباء أخبروني بأن السبب في ذلك يعود لعدم قدرتي على أن أكون جريئاً. أي : لا توجد عيوب في النطق فأنا ألفظ جميع الحروف والكلمات لفظاً سليماً، ولا يوجد مرض معين، كل ما في الأمر أنني أخجل فأتلبك وأتعتع.

أخذتني أمي إلى أكثر من طبيب نفسي مع بدايات التعتعة لدي، مذ أن كنت في الصف الثاني وحتى الآن، ولم يتوصلوا إلى حل، جميعهم يقدمون الحلول ولكنهم لا يقدرون على جعلي أنفذها، ومهما حاولت تنفيذها فلا أستطيع.

يكرر الأطباء النفسيون ذات الكلام لي، والذي حفظته عن ظهر قلب، سأثبت لك أنني رسخت كلامهم كاملاً في ذاكرتي:

1-الشيء الذي تخاف منه لو جربته لكسرت خوفك. لكنك لا تجرب.

2-عمليات الزفير والشهيق تتم في انتظام كامل، الشهيق بتسارع معين وسرعة معينة والزفير بتسارع معين وسرعة معينة.

3-التنفس الطويل يساعد على الكلام بشكل أفضل. فحاول أن تزيد من فترة الشهيق لديك.

4-قل الأشياء مع الزفير وليس مع الشهيق. اشهق وتكلم مع الزفير.

5-قم بحركات تربطها بالكلمات، كالخبط على يدك بشكل لطيف أثناء الكلام، أو أن تشبر بيديك مثلاً، أو أن تأخذ تعابير حركية معينة.

6-الهدوء: تكلم بكامل الهدوء وحاول إظهار صوت متناغم.

7-حافظ على الإيقاع, يرتفع في أماكن معينة من الكلام، ينخفض في أماكن، ويكون متوسط العلو في أماكن أخرى.

8-قم بالأشياء التي تخجل منها وستتحول إلى أشياء عادية.

9-قم بتمارين الرياضة: مخطئ من يعتقد أن الرياضة ليس لها علاقة بالكلام.

10-فكر بأكبر الأشياء لتستطيع القيام بما هو أصغر منها.

11-فكر بالكلام قبل أن تقوله، ولا تقل شيئاً قبل التفكير.

12-صادق من كنت تخاف مصادقته، فتصبح مصادقة الجميع سهلة لديك.

13-لا شيء يتحقق إلا بالصبر، إذا فشلت مرة حاول مرة أخرى، وإذا تكرر الفشل كرر المحاولة حتى يأتي النجاح.

14-الكلمات التي تسبب لك التلعثم، انطقها مراراً ولا تتحاشى قولها خوفاً من انتباه الآخرين لعدم مقدرتك على نطقها, والأحرف أيضاً.

15-فكر بطريقة إيجابية، وتعامل مع العثرات على أنها بداية النجاح.

16-لا تنظر إلى السلم الطويل والمتعب بل انظر إلى الشمس في نهايته: انظر إلى ما سيأتي بعد الألم وهو النجاح.

17-لا تنظر خلفك، ولا تأبه لكلام الناس، بل اعتبره أنه أفضل شيء ممكن أن يقدمه لك الآخرين لتتجاهله وتصعد على سلم النجاح.

18-كرر تمارين الفم واللسان في الأوقات التي تشعر فيها بالملل: افتح فمك بشكل كبير ، ثم أصغر ، ثم أصغر، بهدوء وروية وانتظام مراعياً التقلصات العضلية، مرر لسانك إلى كل طرف من أطراف فمك وفي عدة اتجاهات، وبشكل منتظم.

19-خذ محرمة أو منديلاً أو قطعة من الورق ، وقم بقصها بالطول عدة مرات وانفخ على القصاصات ، قرب المحرمة منك وأبعدها في شكل منتظم، ازفر واشهق بشكل منتظم.

20-خذ شمعة وأشعلها وضعها على بعد منك، ازفر عليها بانتظام.

21-عبئ البالونات بالهواء من فمك، ولا ننسى (بشكل منتظم).

22-انفخ في الهواء دوماً، بطريقة الزفير والشهيق الصحيحة.

هل رأيت؟ لقد حفظت هذه الأشياء عن ظهر قلب، بل إنني أصبحت أخترع قوانين جديدة وابتكارات في علم النفس، أصبحت عالم نفس! ولكن لم أستطع معالجة نفسي! وأريد أن أقول لجميع من أعطوني هذه القوانين والنصائح أنني حفظتها، وفهمتها، لكنني لم أستطع تنفيذها! وبالأخص أريد قول ذلك لأمي سنا ولدكتوري م. م. ك ، فهما تعبا معي حقاً، وأريد شكرهما كثيراً والاعتذار لهما قائلاً ولو برسالة صغيرة:

حضرة الأم سنا المحترمة ، حضرة الدكتور م. م. ك العظيم:

تحية طيبة وبعد،

أقدر لكما مجهوداتكما ومحاولاتكما في جعلي إنسان، لكنني مضطر للاعتذار لكما عن عدم مقدرتي على ذلك، وأشكر لكما تفهمكما.

مودتي

فما الحل؟ ما العمل؟ كرهت نفسي وأنا أتلعثم أمام السيء والجيد، الطيب والخبيث، الدكتور والشحاذ، قطاع الطرقات و الجماهير، بائعي الخضرة و الأطفال، الفتيات و العجائز وأمام الجميع! فهات لي بحل أرجوك، أنا أنتظرك.

6

قد تكرهني إذا قلت لك أنني أكره كرة القدم (لأنك قد تحبها كثيراً، وحتى الآن لم أجد إنساناً يكره كرة القدم إلا أنا) ولا ذنب لي في أنني لم أحبها، لم أشعر يوماً بأنني سأكون ذا موهبة عالية فيها أو أنني سأتمكن من إدخال هدف في المرمى، إذا حدث ذلك .. اللهم لن يكون إلا بمحض الصدفة. كنت ألعب مع أصدقائي بهذه اللعبة اللعينة التي شعرت بأنها حرب حين بدأت بها معهم، بل إن الحرب ستكون أقل وقعاً من ناحية الألم على جسدي من لعبة كرة القدم، ذكرياتي مع هذه اللعبة (عفواً، أقصد مع هذه الحرب) ليست إلا السقوط، البكاء، النحيب، الصراخ، والمعاناة.

أمجد كان الأمهر بيننا، وحين يركض وهو يتلاعب بالكرة أمامي أشعر وكأنني أرى خنزيراً: يشوط كرة، يحوز كرة، ويقود كرة.

حين اعترضت طريقه لم أستطع فعل شيء إلا أن أقف مجمداً، كأنني صخرة جليدية، لكنه لم يكتفي بتجاهلي وحسب ، وإنما ركلني بقسوة بين فخذي، أجل يا سيدي الكريم، لا أكذب عليك حين أقول لك أنه ركلني في أشد الأماكن حساسية في جسدي (أجل، هو عضو حساس جداً يشكل أهمية كبيراً لدى الجنسين معاً، فالذكر يحبه من أجل اختراقه ثقب في جسد حبيبته، والأنثى تحبه من أجل اختراقه فمها بشكل متكرر).

صرت أتلوى على الأرض وتابع ذلك الوغد طريقه مع كرة القدم، كأنني لست إلا إمعة في نظره، ربما لم يلحظ أحد أنه قام بركلي في عضوي الذكري.

صرخت لين من بعيد وهي تنظر إلي كأنها لمحتني للتو:

-أوقفوا اللعب.. هناك إصابة.. يا إلهي!! أوقفوا اللعب..

هه! إصابة! هذا ما أضحكني وأبكاني في آن معاً، ذكرتني بالذي يصرخ لمعرفته بنصف الحقيقة فقط. توجه الجميع إلي ، وسمعت صوت أحدهم يصرخ قائلاً:

-إنه أبو تأتأة! مصاب!

هل يظن نفسه ظريفاً حين يقول ذلك؟ نظرت إليه فكان أمجد ذاته، الذي ركلني، وقد تابع:

-قد يكون أصيب عندما سقط على الأرض! نادوا المعلمة لترى ما بال هذا الأخرق، لم يعجبه أن يصاب إلا في أوقات اللعب والبسط..

ماذا؟ أصبحت أنا الأخرق! ما هذا السخف والنفاق كله؟ ما الذي يهذي به هذا؟ لو أنني أقدر على تهميش رأسه بصخرة لفعلت.

جاءت المعلمة من بعيد، قمت عن الأرض وما زال مكان الإصابة يؤلمني، عرف الجميع من النظر إلي أن مكان الإصابة هو ذلك المكان.

-كيف أصبت هنا!! يا إلهي!!

سألت دارين، ولم أكن قد أجبتها بشيء، لأنني إذا قلت لها أنني مصاب فسأتعتع في لفظي لكلمة مصاب، خاصة في حرف الميم، فاكتفيت بالسكوت.

-أخبرني؟ ما الذي حدث حتى أصبت في (_)؟

لقد قالتها! قالت تلك الكلمة! هذه المعلمة المنحرفة!

قالتها دون ارتباك أو خجل منها، ولم تقلها بشكل علمي أبداً، كانت تستطيع أن تقول (قضيب) بدلاً من قولها لـ (_). كنت أريد أن

أخبرها بما حصل هنا، فتلبكت، ورأيت الجميع يتكلمون بصوت عال ، وصوتي ضعيف جداً ولا أستطيع إخبارها في هذه الحالة.

رفعتني دارين من يدي وقد سمعتُ أمجد يقول:

-قد يكون أحدهم أصابه بالكرة عن غير قصد..

ذلك الوغد! ذلك القذر! ما الذي يتحدث عنه بحق السماء؟ هو الذي لكمني عن قصد وسأخبرها في الحال..

-غـ.. غـ.. يـر.. صحيح...

لم أستطع التفوه بغير تلكما الكلمتين المتقطعتين ، بالكاد كان صوتي مسموعاً، لم يكترث أحد إلي، وأخذتني المعلمة إلى حيث الإدارة لعلهم يجدون شيئاً يفعلونه بخصوص ذلك.

-أكيد فإن أحداً ما أصابك بالكرة عن طريق الخطأ، وفظيع أن الإصابة في (_)..

كررت الكلمة من جديد! أن تقولها مرة فهذا شأن ولكن أن تكررها مرتين فهذا شأن آخر! يبدو أنها ليست فقط معلمة نصف عارية، بل إنها منحرفة أيضاً، والمفروض أن هذه الكلمات السوقية والنابية لا تقال أمام طلابها الأعزاء، لكي لا تتشوه أخلاقهم، ولكنها تقولها بكل جرأة ولا تفرق معها. حسنٌ، في مطلق الأحوال فإن أمثال هذه المعلمة لا يجيدون القرارات في مثل هذه المواقف، أشك في أنها ستصلح الأمر وتصل إلى الفاعل الحقيقي لتعرف إن كان فعله عن قصد أم لا، ولا يسعني تخيل مصير هذه القضية إذا وصلت إلى المديرة اللامبالية ، فالمديرة لا يعنيها شيء مما يحصل في المدرسة على الإطلاق (والحق يقال ، لا يعنيها إلا كيس الموالح ، ولا تعنيها إلا سندويشة الشاورما) ، وصلت بي دارين إلى الإدارة، تألمت كثيراً في مكان الإصابة.

حين دخلنا إلى مكتب المديرة سمية ، رأينا أكواماً من الرقائق التي تغلف بها السندويشات السريعة مبعثرة في أرجاء الطاولة، بالإضافة إلى وجود قطع صغيرة من بقايا الطعام ، وسندويشة كبيرة في فم سمية. سمية ذات الأربعين عاماً، ليست إلا كتلة من عدم المبالاة على شكل إنسانة، لا تفعل شيئاً في المدرسة إلا الأكل والشرب والضحك، وكلما طلبنا منها تحسين شيء في المدرسة كانت تكتفي بالسخرية، وعندما نطلب منها حل مشكلة كانت توصي نائبها الطويل ذو كتلة الشعر الكبيرة بحلها، واسمه نزار. تمتلك المديرة وجهاً ذو شكل سوقي، مفلطح إلى دائري، يغور في أماكن ويبرز في أماكن أخرى، تتبعثر نقاط سوداء عليه لا أعرف حتى الآن طبيعتها أو ماهيتها الجغرافية، تشعرني بالاشمئزاز.

-نريد منك حل هذه المشكلة المستعصية .. حضرة المديرة..

قالت دارين، وهي تلوك علكة في فمها فتصدر صوتاً يبعث فيّ الرغبة في التقيؤ.

-نزار... يا نزار..

صرخت المديرة.

أتاها على عجل رجل طويل القامة ، أطلقت عليه في قرارة نفسي دوماً لقب كتلة الشعر.

-حل مشكلة الآنسة المحترمة هنا..

وجه نزار نظره إلى دارين وسألها عن مشكلتها. أجابت بصوت مشمئز كأنها تكرهه شخصياً-وهو حقاً مكروه:

-لا.. لا شيء.. أنا سأحل المشكلة بنفسي.. اذهب إلى عملك..

-لماذا هذه اللهجة في الكلام يا آنسة؟ احترمي نفسك!

-ماذا تقول! لم أفعل شيئاً على الإطلاق يسيء إليك! فقط اذهب من هنا...

قالتها بغضب شديد حتى ظهرت وكأنها بركان يستعد للانفجار في أية لحظة.

ضاقت عينيه، تسمر في مكانه لدقيقة ثم أدار ظهره وذهب، متحاشياً الجدال معها، وهي حقاً مخيفة حين يتعلق الأمر بالمشاجرات، بل إنني أعطي دارين جائزة نوبل في الوقاحة.

لا أعرف ما الذي حدث لي فجأة، فلقد رغبت حقاً بالإفصاح عن ماهية ما حصل بجرأة، فقلت لها :

-آنسة دارين.. ســـ..

قاطعتني وهي تخاطب المديرة :

-آسفة لاقتحامي مكتبك.. فالأمر عادي ولا يستحق الانتباه.

أشارت لها المديرة بوجهها توحي إليها بـــ نعم، واستمرت في مضغ اللقمة التي في فمها. أخرجتني المعلمة وهي تقول لي في خيبة:

-هل ما زال يؤلمك (_)؟ أخبرني فإذا كان الألم كبيراً لأفحصه لك.

يا إلهي! هل جنت هذه! يبدو أنها تعاني من الحمى أو من شيء من الجنون في رأسها! وهل هي طبيبة مختصة مثلاً أو ممرضة! ناهيك عن أنني لم أنس لها تكرارها لتلك الكلمة النابية بشكل سوقي. ما كان ينقص إلا أن تقول لي (ما رأيك بجولة على الفراش؟) أو أن تقول (هل أعطيك رقم هاتفي لأفحصه لك في ما بعد؟) أو أن تخبرني بأنها تريد أن أعطيها موعداً مخصصاً لذلك.

لم يعد مكان الإصابة يؤلمني، فقلت لها أن تتركني ولم أعرف حتى الآن كيف استطعت ذلك. ربما لأنني قلتها في شيء من اللاوعي، فأفلتتني لأذهب إلى الساحة وأكمل حصة الرياضة. حين خرجت لم أكن قد وصلت إلى الباب إلا ورأيت أمجد ينتظرني ليسد علي طريق الخروج، وهو ينظر نظرة قاسية إلي كأنه مستعد لأن يطرحني أرضاً في الحال.

-اسمع يا بندق.. إذا قلت ما حصل في حصة الرياضة لأحد فإنني سأضربك حتى تشعر بالألم الحقيقي..

نظر من حوله ليتأكد أن ما من أحد يراقبنا، وأكمل:

-هل فهمت؟

اشتدت نظراته، يبحلق في عيني، ضاقت عينيّ في ذعر وأنا أنظر إليه. من أين يأتي هؤلاء البشر بكل هذه القساوة في قلوبهم!! لم أجبه، هذا الوغد اللعين، كم اشتهيت لو أنقض عليه أضربه ضرباً مبرحاً حتى أدمي رأسه، ولكن يا للأسف.. فأنا خجول!!

7

أفضل معلمة كانت تعلمني في الابتدائي كانت سمية، وهي بالطبع، ليست المديرة اللامبالية، بل إن شخصيتها مختلفة تماماً عن تلك الشخصية الهمجية التي تملكها سمية المديرة. سمية معلمة الاجتماعيات لديها وجه مستدير جميل، وبشرة بيضاء، وترتدي دائماً اللباس نفسه ، ملابس رسمية كحلية غير مكشوفة في أي مكان من جسدها، مع أنني ولحبي لها تمنيت لو تكشف بعضاً من أجزاء جسدها، وفقط لأنها أحبتني. إنها الوحيدة حتى الآن! كيف أقول لك ذلك؟ الوحيدة التي أحبتني، الوحيدة التي أحست بأنني إنسان، وأرادت دعمي من قلبها لأتجاوز محنتي، إلا أنني خنت أملها بعد أن انتقلت نظراً لغبائي وعدم قدرتي على فعل شيء، كما هي عادتي. عندما كان أمجد يسخر مني كانت تحتد عليه وتوقفه ، وعندما يشاركونه أصدقاؤه : لين، حلا، علا، رغدة، خضر وأحمد ، السخرية، كانت تؤنبهم أشد التأنيب، ثم تشرح درساً من الأخلاق بعدها وعن كيفية التعامل مع الإنسان، وأنه علينا إعطاء كل شخص قيمته، وعدم السخرية منه، وقد قالت لنا يوماً مقولتها المشهورة:

لا تسخروا من أحد في حياتكم، فلكل واحد منا قيمته.

فخذ على سبيل المثال، أن هناك من الناس من يسخرون من إنسان ليضحكوا إنساناً آخر! فما هذه العقلية القبلية! أنا لن أسخر من إنسان لأضحك إنساناً آخر، أياً كان الأول وأياً كان الثاني، وحجة أن الثاني إنسان غالي على قلبي وأريد إضحاكه عن طريق السخرية من الآخرين، ليست إلا حجة واهية، معدومة الضمير. فما ذنبي أنا ليسخر مني الناس فقط ليضحكوا أحبابهم وأصدقاءهم وأقاربهم

والغالين على قلوبهم! فيأتي إليك أغبياء يقولون لك بعد أن يسخروا منك:

-صدقني هذا كله بغاية التسلية وحسب، أعتذر منك، أتسلى مع رفاقي فقط، الله وكيلك..

أجل، أنا الذي كان يسقط دوماً في هذه المتاهة الشريرة، يفرح الناس على حسابي، يضحكون على حسابي، يسخرون على حسابي و يقضون أجمل لحظات حياتهم عن طريق السخرية مني، ومن أمثالي، مع أنني وحتى الآن لم أجد من هو وضيع مثلي، ويملك مقداراً من الخجل كما أملك أنا!

سمية جعلتني أقرأ مرة قصيدة، وتمكنت من قراءتها ، وحتى هذا الوقت لا أعرف كيف استطعت ذلك، حيث أنها طلبت مني القيام والقراءة وعلى وجهها كل ملامح الثقة بي كأنها تنومني مغناطيسياً، وحقاً أقول لك، إنها ساحرة!

قرأت القصيدة وقتها بكل ما أوتيت من جرأة، لم أتلعثم في الكلام ولو مرة واحدة، استطعت القيام بشيء لطالما حلمت القيام به، ونظر إلي أمجد، أحمد، وخضر نظرات غيظ كأنهم لا يريدونني أن أصبح جريئاً، كذلك فعلن أغلب الفتيات من الصف. بقيت سمية تجعلني أقرأ بجهر لمدة نصف سنة كاملة، وبعدها انتقلت إلى مدرسة أخرى فعدت كما كنت في السابق دون وعي مني، ومع الزمن، عادت سخرية أمجد مني، وتآمر رفاقه معه علي، عاد عجزي وشقائي.

8

أكثر الحصص التي كان يُسخر مني فيها هي حصة اللغة العربية، فسميرة كانت مولعة جداً بالقضاء على معنوياتي، وجعلي ذلك الإنسان الممسحة أمام زملائه، وتهميش شخصيتي. فذات يوم ، طلبت مني أن أذهب إلى غرفة الصف الرابع، لأطلب منهم كتاب الاجتماعيات (حتى تذكرنا بشيء من الدروس التي أخذناها سابقاً) ، فكرت في نفسي ولم يكن الأدرينالين إلا كالقنبلة المتفجرة يسير في كل أنحاء جسدي، ((كيف سأطلب منهم ذلك؟)) ((ذلك يصعب علي)) ((لا أستطيع مهما حاولت)) ، هل سأقول لهم مثلاً ((أ أ أ أ.. أريد.. كـ .. كـ .. كتاب..)) فأغدو مسخرتهم! وهم على أية حال يبحثون عن شيء ما يروحون به عن أنفسهم، ويحولونه إلى خرقة بالية ينظفون بها الأرض، فها هو الإنسان الذي يبحثون عنه.. أنا! أجل، الإنسان دوماً يحب الانتقاص من قيمة الآخر ، هذا الشعور الذي يجعله ينتشي: الآخر سيء-الآخر أقل مستوى مني- الآخر بغيض-الآخر لا يستطيع فعل شيء أستطيع أنا أن أفعله، فيشعر الإنسان عندها بالغرور والمتعة، ولن يكلف نفسه التفكير أبداً في أن (الآخر) الذي يتحدث عنه يكاد يصاب بأزمة قلبية عندما يفكر بالأشياء التي يخاف منها ولا يستطيع فعلها.

-لا أستطيع.. لـ .. لن أذهب..

قلت لها بلبكة.

-ماذا تقول؟ هل هذا كلام يا عزيزي؟ هل ترفض طلب معلمتك؟

قالت ووجهها أشبه بغيمة شباط، وكلمة عزيزي سُمعت كأنها كلمة لقتل الأعصاب.

-صـــ .. صـــ ـ صدقيني لن أ.. لن أ.. لن أ..

ضحك الجميع، بما فيهم سميرة التي كادت تطق خواصرها من الضحك علي، وهي تشير إلي بالجلوس، بشكل كأنها تخبرني فيه ((اجلس يا عديم الفائدة)). جلست ، تمنيت لحظتها لو أنني لم أولد يوماً، ولم أكن إنساناً، لو أنني صخرة، قشة، حبة رمل وحتى لا شيء! لكنت سأكون أسعد مما أنا عليه الآن، لا يمكن لأحد أن يتخيل العذاب الذي حظيت به في حياتي.

ضحكاتهم ترتفع، وجوههم الساخرة تعلق في ذهني وفي شريط ذاكرتي الذي يكاد يُحرق من شدة ما ألمّ به، التفتُّ إلى اليسار فرأيت أحمد يسخر مني معيداً كلامي: ((صـــ .. صـــ .. صدقيني لن..)) ثم يرتفع صوت ضحكته تلك، كأنه يضرب على كل أعصابي ويدفع خلايا جسمي إلى الانتحار. وضعت رأسي على المعقد وصرت أبكي ، عندها أحست سميرة بما فعلته، وطلبت من الجميع التزام الهدوء دون تأنيب لهم أو مجرد تنبيه على ما فعلوه بي. عندما عدت إلى المنزل جلست في الحمام أبكي وأفجر كل ما بداخلي من ألم.

9

المدرسة التي تلقيت فيها تعليمي الابتدائي كانت تدعى "الدكشة" ، نسبة لاسم القرية التي هي فيها، وهي تابعة لنفس المنطقة التي أنا فيها بالطبع، حيث أن المدرسة الوحيدة الابتدائية في المنطقة هي الدكشة، وكنت أذهب سيراً على الأقدام إليها ، ولا يرافقني أحد لأنني لم أشكل أصدقاء.

أما الإعدادية والثانوية هما مبنيان اثنان، يطلق عليهما "ثانوية القطيلبية" أو "ثانوية الشهيد علي داؤود خضور"، ولكن، سواء أكانت المدرسة ابتدائية أم إعدادية أم ثانوية فأنا لا أتذكر يوماً أنني كنت أدخل مدرسة، المبنى قديم للغاية، وعليه بقع سوداء نتيجة لانيهار القطع المدهونة، والحمامات قذرة لأبعد الحدود وقد تدخل فتجد فيها الفضلات أينما توجهت، ورائحة أشبه برائحة جيفة ميتة منذ خمسة أيام، تنظر من حولك لترى ساحة المبنى فتجد أرضاً قذرة تملؤها نفايات علب العصير، والكولا، وأكياس الشيبس والبسكويت وغير ذلك مما لا أطيقه.

لم أشعر يوماً بأنني أدخل مدرسة، حتى المعلمين فشلة وليس فيهم من يعلمك الأخلاق قبل الدخول في المنهاج، وليس منهم من أحد يظهر لك اهتمامه الشخصي بك إلا إذا كنت تافهاً وذو طبع حقير وشرس كما هم قطاع الطرقات، ففي نظرهم، الفتى يجب أن يكون كقطاع الطرقات لكي يكون محبوباً ، إذاً فأنا لست محبوب.

بنظرهم، ليس محبوباً من لا يسخر من زملائه ، ليس محبوباً من لا يصرخ بأعلى صوت ممكن مطلقاً الأصوات النابية على الجميع، ليس محبوباً من لا يملك سكيناً ليتهجم بها على رفاقه، ليس محبوباً

من لا يصاحب مئة فتاة من المدرسة، ليس محبوباً من لا يشاغب في الصف مسيئاً لجميع من فيه على الملأ، إذاً فأنا لست محبوب، ولا أريد أن أكون كذلك رجاء، دعني مكروهاً فهذا أفضل لي في هذه الحال.

نرتدي المريول الأزرق عند الابتدائي ، ثم البدلة الزرقاء عند الوصول للصف الخامس، وفي الصف التاسع نحصل على اللون الأزرق ذاته، يختلف اللون عندما نصل للإعدادية فيصبح رمادياً.

وأنا أكره كل تلك الألوان، هل تعلم لماذا؟ لأنها تعيدني دوماً إلى أكثر أيام حياتي تعاسة، وأشدها بؤساً.. أيام الدراسة! في مدرسة ليست كالمدرسة، ومع أصدقاء ليسوا بالأصدقاء، ومع هواء ليس بالهواء.

كان لدى ابتدائية الدكشة شيء واحد يبدو مثيراً للاهتمام، وهو مكبر الصوت المعلق أعلى البناء، وتسمح المديرة للطلاب بغناء الأغاني الوطنية على الميكروفون أو ترديد القصائد أو إلقاء الخطابات، ويمكنني أن أقول لك مع احترامي لمجهوداتهم أن ذلك المكبر غير محترم أبداً، يطلق صوتاً غير مفهوم، كأنك تسمع صوت أحد بياعي الخضرة وهم ينادون ((بطاطا.. بطاطا.. يالله عالبطاطا)) ، ولم أشعر يوماً أنه مكبر صوت يليق بمدرسة أو حتى معسكر أو من هذا الشيء اللعين.

أنا غاضب، عليهم جميعاً لأنهم لم يجعلوا لحياتي أي قيمة بسبب تلك الذكريات المشوهة التي ألحقوها بي، فلي ذكريات مع مكبر الصوت الأرعن ذاك.

بينما كنت أسير في الممر لأخرج من باب المدرسة نادتني المديرة بصوت حازم، فهرعت إليها وأنا كلي تردد وخوف، فلا أعرف متى سأتعثر بالكلام، وحين وقعت عيني على عينيها قالت لي:

-جهز قصيدة للغد لكي تلقيها عبر مكبر الصوت..

لم أصدق، ارتعشت، أصابني قلق متعب لدرجة شعرت وكأنني سأختفي عن الوجود، كيف تطلب مني فعل ذلك؟ كيف؟ بأي طريقة؟ وبأي أسلوب سألقي تلك القصيدة!!؟؟ وأنا ذلك المتلعثم الذي لا يحسن التلفظ بالكلمات، فكيف يغدو ملقياً للقصائد؟ وعبر مكبر صوت أيضاً! يا لفضيحتي!

يا لسخرية القدر مني!

كيف يلعب بي القدر فيروح بي يساراً ليقذفني إلى جهنم في الحياة، ويروح بي يميناً فيجعلني ألتقي بشياطين على شكل بشر!

كنت أريد أن أقول لها أنني لا أستطيع، لكنها وصلت بمشيها إلى الساحة ووقفت على المنصة تراقب الطلاب، لم أكن أعرف ما الذي سيحل بي في الغد.

عدت إلى منزلي شاعراً بأنني سأموت غداً، فالموت هو موت الكرامة وأنت على قيد الحياة، وغداً تموت كرامتي! أمام أكثر من ثلاثمئة طالب! شعرت أمي بأن هناك خطب فيّ.

-ما بك يا حبيبي؟

قالت لي، ووجهها يرسم شغفاً.

-أمي، سأقول لك، أو لا ، لا شيء!

-قل لي يا حبيبي أنت! إذا لم تقل شيئاً فسأكمل يومي وأنا غير سعيدة على الإطلاق! فهل ترضى لأمك بذلك؟

تنهدت، شهقت ثم زفرت بخيبة. وقلت:

-أرجوك.. لا أريد أن ألقي القصيدة!

ورميت نفسي في حضنها خائفاً، أبكي ودموعي تبلل سترتها.

حضنتني بقوة .

-لا تبكي يا بندق، كل شيء له حل، عن أي قصيدة تتحدث؟

-طلبت مني المعلمة إلقاءها، لن أستطيع.. لن أستطيع!

-بلى تستطيع، ستلقيها وأنا واثقة من ذلك، أنا أثق بك!

-وماذا إذا تلبكت؟ ماذا إذا خفت؟ هذه أول مرة لي يا أمي! كيف ألقي قصيدة أمام جمع غفير من الطلاب وأنا أتلبك في إلقائها في الصف!؟

-ماذا تقول؟ إذا ستلقي القصيدة أمام الطلاب جميعاً؟ حقاً إن المعلمة التي طلبت منك ذلك رائعة، تريد تشجيعك!

-لا ، تريد السخرية مني!

-لا، لا تقل ذلك يا بندق، ثق بمن حولك وبأنهم يهتمون بك، وصدقني ستتلفظ بكل الكلمات صحيحة.

-لا، لا، لا يا أمي لا..

مسحت لي دموعي على مهل، وأنا كنت في قرارة نفسي مصاباً بالغثيان، لا أستطيع، هذا كل ما أعرفه، وأن الغد هو موعد فضيحتي، لكن أمي تأبى أن تستمع إلي، وأن تفهمني.

-كما قلت كل كلماتك الآن بشكل صحيح، ستقولها في الغد.

إنها لا تعرف أنني حين أقف أمام الناس فهذا أمر مختلف، أتكلم معها بشكل سليم ، وأما حين يتعلق الأمر بالحديث إلى الآخرين وإلقاء الخطابات والقصائد فلا شيء يسعني إلا أن أقول لك أنني عاجز، مهما حاولت أمي أن تجعلني قادراً.

صرخ أبي من الصالون :

-ما بكم؟ سنا.. ما بال ابنك؟

كان صوته يدل على انزعاجه.

-ابنك يخاف إلقاء القصيدة أمام الطلاب!

قالت أمي، دون ارتياح.

-ماذا قلت؟ ابني أنا يخاف! ما هذا الكلام بحق الرب! أنا ربيت طفلاً يخاف كالنساء!!

قالها بصوت مرعب، شعرت وكأنه يقاتل في جبهة إرهابية.

ها هو يقف أمامنا، يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة.

-تعال إلي.. اقترب مني..

اقتربت منه، وفي صدري رهبة.

نظر إلي من عينيه بقوة، كأنهما عيني صقر. ملامح وجهه الغاضبة، العقدة التي على جبينه، شفاهه المتشققة، كل ذلك أوحى لي بذعر حقيقي.

-هيا، أعد لي هذا البيت ((إذا رأيت نيوب الليث بارزة.. فلا تحسبن أن الليث يبتسم))

اعتراني القلق من جديد، لا شيء إلا القلق في هذه اللحظات البائسة، كنت قد شعرت بأنني سأتلبك، فقلت له وترتجف شفتاي ويدي على سواء:

-إ.. إ.. إ.. ذا.. رأيت..

لم أكمل كلامي وأتاني بصفعة على وجهي طرحتني أرضاً.

هرعت أمي توبخ أبي بشكل لطيف، تقول:

-ليس هكذا تحل المشاكل يا أبا جبور!! هدئ من روعك!! هذا ابنك!!

لم أكن أستطيع إيقاف دموعي، وما زلت أنظر إلى وجه أبي الغاضب النافر مني، لقد كرهت وجهه بسبب هذه الحادثة، وأصبحت أتمنى رؤية وجه الخفاش على رؤية وجهه، ذلك الوجه الحنطي المليء بالحَبّ ، وتلك الشامة التي على يمين جبهته ، التي جعلتني أمقته.

-هذا الغبي الأرعن! لا يعرف كيف يقول كلمة واحدة! لعن الله الساعة التي أنجبت فيها ولداً بائساً كهذا!!

عندما قال ذلك الكلام، لم يعد بنظري يعني لي شيئاً، لم يعد والدي، لست ذليلاً إلى هذا الحد الذي يصفني فيه، ولو كنت كذلك فما من حقه أن يصفني بالبائس.

ذهب في طريقه إلى الصالون وهو ينادي جبور قائلاً له بلهجة من المحبة:

-تعال يا جبور.. وأحضر النرجيلة لنشرب على السطح.

لكأنه يريد أن يوصل لي رسالته الآتية ((أنت لا تعني لي كما يعني لي جبور، أنت لا شيء بالنسبة لي)).

أمي تحاول إيقاف دموعي، لكنني بقيت أبكي في تلك الليلة حتى امتلأت وسادتي بالدموع، تقلبت في الفراش مراراً وأنا أتذكر وجه أبي وضربته القوية التي ما زلت أشعر بأنينها في داخلي، قد تقول عني أنني حقود، وسأقول لك أنك محق إلى أبعد الحدود. فإنني لم أنسى تلك الليلة في حياتي قط.

اليوم التالي، ذلك اليوم الذي كان أكثر بؤساً من سابقه، ذهبت إلى المدرسة وفي قلبي ذكرى البارحة المريرة، وأنا على يقين تام بأن هناك كارثة أخرى ستحصل معي في المدرسة. وأنا أقف خلف ذلك الوحش الذي يدعى ميكروفون. والذي يطل على وحوش أكثر شراسة، الذين يطلق عليهم لقب الطلاب.

وصلت إلى الساحة، دقائق ورن الجرس، ودخلنا الصف في انتظام، رأت الموجهة أنني أرتدي القميص وحسب، كيف غفلت عن ذلك ونسيت السترة!!

النظام في المدرسة مشدد جداً، وأي طالب ينسى سترته ينال ضرباً بالعصى، لم أكن يوماً مع الضرب ولكنني مجبر على الخنوع والاستسلام لأن لا أحد معي، لا أحد يقف إلى جانبي الآن.

أمسكت الموجهة الشمطاء تلك العصا- المأخوذة من شجرة الرمان- في يدها اليمنى، نظراتها المحتدمة أوحت لي بأنني أكبر المذنبين على وجه الأرض حتى شعرت أنني أستحق جهنهم ، فقط لأنني نسيت السترة.

أمسكت يدي اليمنى بيدها، ردعتها مراراً فصفعتني، وأبت إلا أن تضربني على الرغم من كل محاولاتي في النطق.

-أ.. أرجوك..

-اخرس.. لا تتعتع ولا تبعبع.. أربع عصي لمن ينسى ارتداء السترة.. نقطة انتهى..!!

ضربتي أول مرة، فشعرت بالألم كأن أفعى لدغتني في يدي اليمنى، العصا الثانية أشعرتني بألم أقسى لدرجة لم أعد فيها قادراً على التحمل، ثالث عصا، الرابعة.

احمرت راحة يدي وتغلغل فيها شيء أشبه بالسم، ووقعه أشد من وقع افتراس الوحوش لوجباتها، مشيت متجاهلاً ألمي إلى غرفة الصف..

وصلت إليه ، أخذنا حصة اللغة الإنكليزية وفي غضون أربع وخمسين دقيقة رن الجرس فأخذنا حصة الرياضيات، شعرت بالممل فيها كثيراً فمن يعيطها هي الآنسة سميرة نفسها، وهي لا تستطيع الشرح كما يجب، ولا يمكن لها إيصال الأفكار بالطريقة الجيدة، أشعر في أثناء درسها مراراً بالإعياء.

رن الجرس بعد أن كدت أصاب بالهيستريا، ليس من الدرس الممل وحده وإنما من تفكيري في القصيدة التي سألقيه مراراً، وخوفي المطبق كأن السماء تهوي من فوق علي وحدي من بين جميع البشر.

خرجت إلى الساحة ، لعل المديرة تنساني.

خابت توقعاتي، وإذ بالمديرة تبعث إلي بأمجد لكي يحضرني إلى غرفة الإدارة، مشيت كأنني أزحف في المعركة إلى حتفي، صدقني إذا قلت لك أن أكثر المشاعر برودة و هزيمة انتابتني في هذه اللحظات.

عذابي، ضعفي وعدم مقدرتي! هي الأشياء الوحيدة التي أثق بها.

استقبلتني سمية بوجه شاحب، تسألني لماذا لم آت.

-ك.. ك.. كنت س.. س.. آتي..

-ها.. هاهاها.. تضحكني يا فتى حين تتلعثم..!!

ما بال كل هذا النفاق! وكل هذه الملامح الساخرة على وجهها؟ لكأني هنا لتسخر مني فقط، وليس لدعمي كما قالت أمي.

-هل حضرت القصيدة؟

لا أعرف ماذا سأجيب، فقد نمت البارحة باكياً ولم أنل الوقت الكافي للحفظ ، ولم أكن أريد من الأساس فعل ما طلبته مني.

-لا..

-ماذا قلت؟ كيف تجرؤ؟ طلبت منك أنا مديرتك حفظ قصيدة لتلقيها، فكيف تتناسى وتفعل ما يحلو لك بهذا الشكل الرهيب!! من قال لك أنك تملك الحق في فعل ما تريد!! النظام هو النظام، وأنا المسؤولة هنا عنه، ستلقي قصيدة يعني ستلقي قصيدة!! وكفى!!! على كل حال فلدي قصائد هنا في مكتبة الإدارة، وسأختار لك واحدة.

أخذت كمشة من الموالح التي كانت أمامها، واتجهت نحو المكتبة.

كان المكتب يعج برائحة الوجبات السريعة، وقشور الموالح على الطاولة كالجبال.

صارت تقضم من حبات الموالح ، تارة الفستق وتارة البزر الأبيض، بسرعة كبيرة، وقد اختارت لي كتيّباً لسليمان العيسى، ووضعت أمامي قصيدة بدت لي وكأنها قاتلتي.

نظرت إلى القصيدة، أولها يبدأ بحرف ألف، يا لمصيبتي! أشد الحروف قوة، وأكثرها قدرة على جعلي أتلعثم، حرف الألف! ذلك الحقير المدنس الذي تمنيت اختفاءه من حروف اللغة! كم أكرهه!

أمرتني بأن أقترب من طاولة الإذاعة، هكذا نطلق عليها، وكانت في هذا الوقت بالذات كالمقصلة أمامي، أنظر إليها فأتخيل رأسي أسفل المقصلة، والقصيدة تنهال علي بحد قاطع فيرتمي رأسي بعيداً، كيف سأردد كلمات مليئة بالحروف الصعبة؟

نظرت إلى حرف القاف في الشطر الثاني، كأنه إبليس بحد ذاته!! إن كان يصعب علي حرف الألف فكيف سيكون القاف!!؟؟

مستحيل، قطعاً، على الإطلاق لن أتمكن من فعل شيء.

تسارعت نبضات قلبي، والأدرينالين يضخ بقوة في عروقي، شعرت بضغط هائل في صدري كأنني أختنق، ولا أقدر على التنفس، صرت أشهق بشكل غير منتظم دون وعي مني في ذلك، صوت الحمار تماماً، كان صوتي.

نطقت بحرف واحد على الميكروفون:

-أ..

ثم توقفت، رميت الكتيّب بعيداً على الأرض غاضباً، صرخت بكل ما أوتيت من قوة أريد تفجير ما بداخلي من ألم:

-كلكم أولاد زانية.. ابتعدوا عني جميعاً.. ابتعدوا... منافقون.. سفلة.. أوباش.. اذهبوا إلى الجحيم..

ثم ركعت على الأرض أبكي.

فجعت المعلمة مدركة أن صوتي خرج إلى الطلاب عبر المكبر وعلى الرغم من أنني لم أنطق تماماً فيه، فقد رميته على الطاولة أيضاً.

غضبت، وكأنها بركان ليس بالخامد، والحمم تستعد للانطلاق، تجاعيد مخططة على وجهها ظهرت، أصبحت كأنها وحش بشري.

دخل نزار من الباب وهو يصرخ منفعلاً:

-ماذا يحصل في الإدارة؟ ما هذه الألفاظ التي خرجت من مكبر الصوت للتو؟ من الولد الشقي الذي قام بذلك حتى أشبعه ضرباً؟

صرخت سمية :

-لا.. لا تقترب منه، دعه لي أنا، هذا الحقير الصغير، سأوسعه ضرباً وألقنه درساً لم تعطيه إياه دارين ولا سمية، سأجعل منه عبرة للمدرسة..

ما ذنبي أنا؟ كل ما فعلته أنني أخرجت ما بداخلي في لحظة غضب!! هم الذين دفعوني لفعل ذلك!! ألم أقل لها أنني لست أهلاً بإلقاء القصائد!!

ما لملمت نفسي عن الأرض إلا ولقيت رفسة على أسفل مؤخرتي، من سمية.

صرخت متألماً وأتتني بالضربة الثانية، والتي كانت لكمة على بطني، ثم رفستني في بطني مجدداً كأنني لست بإنسان أمامها، وبعد ذلك رفعتني من كتفي وما زالت رأسي تتلوى من الألم، لكمتني في وجهي ، كأن جبلاً بالكامل قد سقط على ذلك الوجه.

ردعها نزار بكلتا يديه، وما زالت الرغبة فيها متأججة لكي تضربني.

-أخرج هذا القذر من الإدارة!! في الحال! أخرجه يا نزار!! سأقوم بتربيته لاحقاً أكثر من ذلك وسأطالب والديه بضربه حتى يعتذر لي أمام جميع الطلاب..

خرجت من الغرفة أبكي بقهر ما بعده قهر، كأنني ذلك الإنسان المهزوم من الداخل ومن الخارج في آن معاً، كأنني مت منذ زمن والآن يدفنونني بكل لحظة من لحظات حياتي، خرجت من الساحة أيضاً، توجهت نحو الباب، وحينما كنت أريد الخروج أمسكت بي دارين القادمة من بعيد.

-يا إله!! من فعل بك كل هذا؟؟ وجهك متورم وثيابك مجعدة!! الكدمات!!

أخذتني بسرعة إلى حيث غرفة الإدارة من جديد، كنت أريد أن أقول لها أن هناك سألقى حتفي ولكنني لم أستطع الكلام.

ذلك اليوم لن أنساه في حياتي، فقد قام أبي في ما بعد بضربي مجدداً وفي نفس الأماكن التي ضربتني فيها تلك الفاسقة سمية، ولم يسمع مني أي مبرر ، وحتى أمي صدقت كلام المديرة عني بأنني إنسان قذر، وغير أخلاقي، ولن أسامحهم يوماً على فعلتهم بي، فهذه الأشياء لا تغتفر.

10

هذه الحادثة بالذات حصلت معي عندما وصلت إلى الصف السادس، لمّا كنت في درس الاجتماعيات الذي تعطيه لنا الآنسة سميرة، كان رأسي يؤلمني للغاية، ولا أستطيع القول إلا أنني شعرت بزلازل تحدث في رأسي، فلم أكن قادراً على التركيز في ما تقوله. رأسي دوماً تؤلمني وهذا ليس طبيعياً كما تظن أنت، وإنما هو أمر يجب أن يحدث في نظري، فلو كان أحدهم في محلي لما استطاع تحمل كل ما حدث له في حياته، ما كان سيكملها لو أنها حياته، كان سينتحر أو يطلب من أحد ما أن يقتله ليخلصه من عذاباته، بل إن الصخور ذاتها إذا وضعتها في مكاني لتتحمل ما تحملته أنا لكانت ستصرخ من الألم والنحيب.

يقال أن تأثير الضغط المعنوي الشديد والذكريات المؤلمة و اللحظات الحرجة من حياة الإنسان له وقع أكثر من تأثير الحروب والمعارك، وأكبر مثال على ذلك أنا. أشعر بأن الخلايا لدي تقتل مع الزمن، هناك شيء يمنعها من الحياة، وأعصابي تنهار وتُحرق الأنسجة العصبية بمرور علجة الزمن، يُقضى علي بمرور عجلة الزمن، و أموت على قيد الحياة تحت تأثير عجلة الزمن.

عجلة الزمن! يا للسخف!

عندما انتهى درس الاجتماعيات ظننت أن سميرة ستمنحنا خمس دقائق للتسلية والترفيه قبل رنين الجرس، لكنها لم تفعل ذلك، ولو

أنها فعلت ما كان ذلك ليؤثر فيّ شيئاً، لأنني في الأساس أبقى وحيداً ، دونما أحد معي.

يجلس رفاقي مع بعضهم على مقاعدهم، ويتحدثون بشؤون عديدة، فيحكون عن كرة القدم، وعن المضارب، وعن البيسبول، وأنا أتحدث مع نفسي فقط.

تتحدث الفتيات عن أمجد بكثرة، يصفنه بأنه قوي وجذاب جداً، ويتخاصمن عليه كثيراً وكل واحدة منهن تجد نفسها ملاكاً حين ينظر إليها، وتشعر كما لو أنها ملكت العالم، ويبقى الصف في حالة فوضى وكلمات غبية وتافهة تسمع في الأرجاء، وأنا صامت ووحيد.

ما أزعجني أن سميرة كانت ستُسمّع بالدرس نظراً لمشاغبة من في الصف، وعقاباً لهم على ضجيجهم، مع أنها للتو كانت تحاكي أمجد كأنها أخته الصغيرة!

وقعت عينيها عليّ ! لم تجد غيري!

-قف يا بندق..

كل من كانوا يضجون لم تنظر إليهم، لم ترى إلا الذي ينعزل وحيداً ولا يحاكي أحداً لتسمع له!

وقفتُ في خجل، أنظار الجميع تتجه نحوي، خاصة أنظار الفتيات المتبجحات والمغرورات اللواتي يسخرن مني دوماً، لين هي الوحيدة التي لم تكن تسخر مني، وأكون تعيساً جداً عندما أفكر في أنها تشفق عليّ وتشعر بحالتي، فأنا ذلك الإنسان المثير للشفقة بنظر الكثيرين ممن حولي.

قالت إحدى الفتيات والتي تدعى سالي وهي تنظر إلي بنظرات حادة فيها شيء من التنكيل :

-انظروا إليه كيف يرتعد خوفاً!! أراهن أنه لن ينطق بحرف واحد!!

أجابتها زميلتها التي بجانبها بثقة:

-هذا إن استطاع أن يكمل وقفته!!

ضحك الجميع.

-يكفي هذا..

قالت المعلمة، بصوت ضعيف كأنها تعمدت ذلك، لكي تجعل السخرية مني مستمرة ، ونباح الكلاب عليّ في تقدم.

-هل بإمكانك أن تشرح لي العوامل المؤثرة على حضارة البدو؟

تذكرت ذلك السؤال، لأنني حفظت الدرس البارحة ولم أنم إلا وأنهيت جميع واجباتي المدرسية وحفظت دروسي الأخرى، إلا أنني الآن أقف ولا يمكنني التحدث، لا تخرج الكلمات من فمي ، عبثاً أحاول.

فكرت قليلاً، أنني إذا قلتها الآن سأُخرس جميع من يسخرون مني، سأرمي على التافهين نارهم لتأكلهم، لكنني لم أستطع تنفيذ خطتي.

لن أنطق مجدداً كما كنت أفعل في السابق، لا أريد لأحد أن يسخر مني فأنا أملك كرامة ونفساً عزيزة عليّ، وفقط لأنني أتعتع فلن أتكلم، وليفعلوا ما يريدون.

لم أجبها. ولن أفعل ذلك.

-هل تعلم ما معنى أن تقف هكذا دون جواب!! وأنا التي تشققت شفاهي وبحّ صوتي وأنا أعطيكم الدرس!! تأتي لتقف أمامي كالصنم

الأبله الذي لا صوت له ولا تفكير!! ما عقاب ذلك؟ أنت تعلم جيداً.. أليس كذلك؟

أعرف الجواب، ولا أريد أن أقوله لها، كرامتي على المحك.

نصف دقيقة من الصمت.

-يا معلمة!! كفاك استخراجاً للكلام من إنسان لا يتكلم!! هو هكذا خلق!! لا يستطيع الكلام! كيف تريدين منه أن يتحدث وهو بالكاد يستطيع الوقوف!!

قالت سالي بلهجة ساخرة، وتنتظم أسنانها بشكل يقتل أعصابي. فحين التفتُّ إلى الخلف ونظرت لها فقدت كل ثقتي بنفسي، كدت أصاب بالدوار ونظرت لأعلى فرأيت المروحة تتحرك بشكل رتيب ، مما دفعني للجنون في داخلي، خاصة وأن الموقف ممل وكئيب وأريد الخلاص منه بأسرع وقت، نظرت إلى الأرض بخيبة، وهذا كل ما في الأمر.

-توقفي!! هذا معيب!!

قالت لين التي تجلس في المقعد المجاور لمقعد سالي، بلطف.

-صحيح، الكلام بهذه الطريقة معيب جداً!! ألا تخجلين من نفسك وأنت تتآمرين على طالب معنا في ذات الصف!! كفاك عبثاً!!

قال وسيم، وهو ليس بالطالب الذكي، لكنه طيب وجيد، ولم يؤذني يوماً طوال فترة دراستي في هذه المدرسة، بل إنه كان يحادثني أحياناً في الخلوات ويقول أن علي أن لا أجلس وحيداً، وفي حال مللي يطلب مني أن أجلس معه، لكنني لا أحب إلا الانطواء.

ردت عليه سالي وقد وقفت بشكل وقح :

-ماذا؟ هل تدافع عن هذا الإمعة الصغير إذاً؟ صدقني إنه لا يستحق أن تدافع عنه!! انظر إليه كيف هو ساكن ولا يملك كرامة!!

هذا غير صحيح، أنا أملك كرامة أكثر منك ومن أمك أيتها العاهرة الصغيرة، قد تعتبرني سوقياً إذا أطلقت عليها تلك الألفاظ، لكن صدقني حين أنظر إلى وجهها وهي تتهجم علي بهذا الشكل لا يسعني إلا أن أقول أنها عاهرة من العيار الثقيل. ما هي الغاية من قتل إنسان معنوياً فقط لكي يزداد ضعفه!! أي سوقية هذه؟ وأي إنكار للذات وللنفس الإنسانية!! قد تقول لي أنها طفلة ولا تعرف ماذا تفعل!! أقول لك يا عزيزي عندها أن مثل هذه المواقف لن أنساها في حياتي وستحفر في عقلي كأنني أرخص إنسان على وجه المعمورة، ليس هناك داع لأن تفعل سالي ما فعلته الآن!!

-اصمتوا جميعاً!! هل نسيتم أنني هنا!!

صرخت المعلمة بشكل مدوّ، مما جعل الضجة التي حدثت إثر وقوفي كالصنم، تهدأ.

-من لا يحفظ الدرس يأكل أربع عصيّ ، ولا يمكنني إلا أن أطلب من سالي الآن أن تحضر لي العصا، لكي لا تكرر فعلتك الشنيعة هذه مرة ثانية. فهمت؟ بندق؟

فوق كل ما حدث لي في هذه اللحظة!! أربع عصيّ أيضاً!! والله إن ما يحدث لي حرام ولا يسكت عليه يا ناس!! انظر إلى سالي العاهرة!! إنها تذهب الآن لتحضر العصا وتتملق بالنظر إليّ ساخرة كأنها حققت مرادها الأول والأخير، أخاف أن تحضر عصا الخيزران، إنها ذات وقع مؤلم أكثر من تلك العصي التي لا تؤخذ من الخيزران.

نظرت يميناً فرأيت شبح أمجد يترصدني، نظرت يساراً لأرى فتاة تسخر مني ، وأمامي ذلك الشبح الذي يريد ضربي وإهانتي باستمرار، والأخطر من ذلك أن مواقف أخرى كهذه ستتكرر لأكثر من مرة طوال العام الدراسي والأعوام التي بعده، دون أن يكترث إليّ أحد ويرى أن هناك ضعيفاً مثلي يحتاج لمن يساعده ويقوّيه ويمده بالعزم. سأقول لك : يا لي من إنسان مثير للشفقة حقاً! أليس كذلك؟

ضُربت وقتها حتى كادتا يديّ تُصابان بالشلل.

11

كنت لا أزال في الصف السادس عندما انتقلت معلمة جديدة إلى مدرسة الدكشة، وهي، إلى حد باهر، فاتنة ، كاسمها تماماً.

بالطبع لا أقول لك أنها فاتنة بالمظهر –مع أنها حقاً كذلك-وإنما أقول أنها فاتنة من الداخل، لقد شدتني روحها الفنية البحتة، ومحبتها لعملها على الرغم من وجود أمثال سميرة وسمية السوقيتين.

فاتنة معلمة الرسم، قدّمت لي دعماً لن أنساه في حياتي، في مجاليّ الرسم والمعنويات، فكلما كنت أخجل من التعبير عن شيء في حصتها كانت تتقرب إليّ وتطلب مني البوح به في أذنها، وكلما رسمت رسمة جديدة اطلعت عليها وفي عينيها دهشة ولمعة قوية إلى أبعد الحدود، كأن كل ما فيّ يستهويها، وهذه أول مرة، يظن إنسان ما أن في داخلي شيء يستحق الاهتمام، فأبي كلما رآني أرسم كان يُكشّر فيظهر وجهه كأنه سحابة سوداء ، وأمي كانت تلقي بنظرات ساخطة كلما وقعت عينيها على لوحة من لوحاتي، وأخي كان يمزقها أو يغلف بها سندويش الفلافل.

وأما فاتنة! هذه الإنسانة الرائعة!! كيف سأصفها لك؟ بأي طريقة!! إن كنت تريد أن أصف لك شكلها وجسدها فسأقول لك أنها أنيقة جداً، شعرها القرمزي الحلزوني، بشرتها البيضاء، وجهها الذي يشبه وجه القمر، نظارتها الحمراء المدورة، كل ذلك كان من تفاصيل جمالها، والأهم من ذلك .. جمال الروح.

أول يوم تعرفنا فيه على فاتنة كانت ترتدي فيه تنورة مبهرجة جداً، فيها الأزرق، الأحمر، والأخضر بشكل منظم كأنها اختارت تحفة

فنية لترتديها، وأما البلوزة فكانت سوداء، وكانت تنتعل جزمة سوداء طويلة تجعل منها ساحرة من الساحرات الملائكيات.

وأنا، أكون مستحياً جداً في لحظات التعارف مع المعلمات الجديدات، حيث أنهن يطلبن دوماً منا التعريف بأسمائنا، خذ على سبيل المثال، دارين كان وجهها كوجه بومة عندما تعارفت علينا أول مرة، مما جعلني أرتبك في لفظ اسمي أمامها وتمكنت من إضحاك الصف ضحكاً ما بعده ضحك وقتها، أما سمية التي أحببتها أيضاً بمستوى محبتي لفاتنة، فقد جلست كأنها رئيسة وزراء على الطاولة وهي تطلب أسمائنا، وعندما أخبرتها باسمي كانت تلك المرة الوحيدة التي أقول فيها اسمي دون تلبك منذ دخولي الصف الأول وحتى الآن، ربما شعرت بشيء ما ينبعث منها ويقول لي ((قلها ولا تخف))، وبصراحة، أنا نفسي لا أعرف قدرة الجذب المغناطيسي التي تمتلكها سمية.

عند لفظي لاسمي لأول مرة أمام فاتنة، كنت سأتلعثم، لكنها وقتها تقربت مني حتى قبل أن يشعر أحد بأنني سألفظ الحرف الخطأ، ودنت برأسها من رأسي حتى كادت تلامسها، وطلبت مني البوح باسمي لها عن قرب، حتى تخفف من خجلي، كأنها علمت ما أريد منها أن تفعله حقا!! هذا وعلى الرغم من ذلك فإنها كانت تشجعني على الحركة في الصف، وتطلب مني دوماً مساعدتها في تزيين الغرفة، لقد قَلَبت غرفة الصف من حال إلى حال، فقبل مجيئها كانت الغرفة أشبه بمزبلة من مزابل التاريخ: الزجاج المكسر على النوافذ، الحيطان المدهونة في أماكن والغير مدهونة في أماكن أخرى، الأرض المليئة بالنفايات ، المقاعد التي تعج بشخبطة المجانين من طلاب الصف، كل شيء كان يثير الاشمئزاز. وأما بعد مجيئها، فقد انقلب الصف إلى لوحة فنية مرسومة بريشة فنان مبدع: أصبحت

الحيطان تعج برسومات أخفت تلك الأماكن الغير مدهونة، وصارت الأرض نظيفة للغاية لحثها الطلاب على النظافة بشكل لطيف دوماً، حتى النوافذ تمكنت من إخفاء الأماكن المكسورة من زجاجها عن طريق قصاصات الورق، وزينت الصف بأشكال ورقية من الأشغال والورق المقوى، فترى أحصنة تطوف في الجو، وعصافير تزقزق في جوانب السبورة، وجنيات يسبحن في الحيطان ، حتى أنني أصبحت أحب الصف وفقط لوجود فاتنة فيه، وغير ذلك ما كان ليعني لي شيئاً.

لطالما قالت لي أنني مبدع في الرسم، وحقاً كنت أشعر بموهبتي منذ صغري، فقد كان رسمي غاية في التنسيق وكلما أردت أن أرتاح من الهموم والأوجاع في حياتي احتضنت علبة الألوان بحنان، ثم فتحتها وبعثرت الأقلام أمامي وصرت أرسم ما بداخلي على البياض فيتحول إلى عالم كامل في ورقة.

أبي كان يقول لي ((ما من شيء جميل في لوحاتك)) ، أمي كانت تبدي رأياً ساخطاً، أخي يضربني في بعض الأوقات ويغتاظ من قدرتي الباهرة على الرسم ، وأصدقائي يحسدونني.

ذات مرة طلبت مني فاتنة أن أرسمها، وكان ذلك في حصة الرياضة حيث أَخَذَت الإذن من معلمة الرياضة، تلك المشوهة بوجهها وأخلاقها، والتي تدعى كاترين، سأصفها لك في وقت لاحق.

وحين رسمتها ظهرت علامات الانبهار على وجهها، وقالت لي بصوت شغوف :

-بندق!! أنت فنان حقيقي!! كأنني أنا نفسي في الصورة!! كأن الورقة أنا!!!

لمعت عيني، شعرت بصدقها ، كأنها تتحدث حقاً عما بداخلها دون نفاق أو مجاملة، كادت عيني تدمعان ولكنني أخفيت وجهي فحنيته إلى الأرض، ومع ذلك فقد كنت أسعد إنسان على وجه الأرض، شعرت بأن أحداً ما في هذا العالم البائس، يقدّر فيّ شيئاَ ما، يشعر بأن لي قيمة!!

نظرت إلى وجهها وقد استطعت منع دموعي!! فاجأتني!! كانت الدمعة قد امتنعت عن السيل في عينيّ لكي تسيل من عينيها على وجهها الناعم! وما زالت تحدق في الصورة!!

وفي شيء من اللاشعور، ارتميت في صدرها، أريدها أن تحضنني كأنها أم لي، كأنها صديقة وعزيزة، وشخص استطاع أن يقدم لي ذكرى ولو بسيطة ، إلى حياتي التعسة المليئة بالحزن.

12

حتى مع القطط!! ذكرياتي ليست بالذكريات الجميلة! هل تصدق أنني طوال فترة حياتي المملة والحقيرة لم أتمكن من حماية قطة واحدة من تلك القطط التي رعيتها وقدمت لها الطعام وأحببتها؟ وأرجوك أن تركز في كلامي على كلمة "أحببتها"، وأما إن سألتني لماذا أقول لك ذلك، فأكمل معي لأخبرك عن جدي..

منزلنا يقع في أرض ترابية مع ثلاث بيوت لا تبتعد كثيراً عن بعضها، والأرض الترابية تطل إلى الشارع العام في المنطقة، والذي تأتي عبره الحافلات والسيارات والشاحنات، وغيرها من وسائل النقل اللعينة، وبالمقابل من مخرج الطريق الترابية توجد الطريق مباشرة إلى ثانوية القطيلبية، وأما ابتدائية الدكشة فتبتعد عن الشارع العام بحوالي كيلو متر واحد إلى الأمام.

بيت جدي هو أحد البيوت الثلاثة التي أخبرتك عنها، منزل كبير جداً ولكن لمجرد أن تنظر إليه ستدرك أنه ليس بالبناء الفخم، فكبر الحجم قد لا يدل أبداً على الجمال والمضمون.

بيت جدي، على الرغم من أنني أحبه، إلا أنني أراه بدائياً ، فهو مبني من الاسمنت في بعض أماكنه، ومن الطوب النيء في أماكن أخرى، أمامه طاحونة ميكانيكية وعصارة زيتون قديمتين.

ترتفع العواميد في بلكونته بشكل طويل لتلامس أسطحها المكللة بالقصب، وهناك شجرة أرز عملاقة قليلاً في حديقته، وتلك الحديقة على وجه من الاهتمام كانت عمتي هيام تقوم بطردي منها وطرد كل من يأتي إليها خوفاً عليها من جهة، ولأنها تكره الأطفال الصغار

من جهة ثانية، علاوة على ذلك فإن جرة المياه الموضوعة على جانب مدخل الحديقة قد تنكسر بفعل شيطانيّ من أحد الأولاد.

وأما جدّي، الذي أريد أن أحدثك عنه، فهو في الثمانينات ، جسده يابس كشجرة ميتة ، ووجهه شاحب وتلك العصا التي يحملها تصيب معدتي بالمغص، نظراً لأن رأس الأفعى الموجود في طرفها العلوي يخيفني ويذكرني بقصص خيالية لطالما قرأت عنها ولم أستطع النوم بسببها، وكرهي لتلك العصا بالطبع لم يمنع جدي من أن يتعلق بها.

لكنني أكرهه! لا أكره تلك العصا الأفعوانية وحدها، وسأقول لك من دون رهبة أن كرهي له لم يكن إلا لضربه قططي بشكل متواصل، فكلما ربيت قطة جميلة كان عندما يلحظني معها يأتي بالرفش ويركض ورائها وفي نيته أخبث النوايا بحقها، وتلك القطط لم تكن في النهاية إلا قططاً مسكينة تبحث عن الطعام والشراب في منطقتنا عديمة الرحمة.

إذ أن سكان القطيلبية لا يحبون القطط، ويقومون على نحو مكثف بقتلها إما بالرصاص أو أن يعذبها الأولاد حتى الموت.

هذا ما كان يثير فيّ الغربة بالقضاء على الإنسان من أجل القطط، وقد تستغرب حين أقول لك ذلك، ولكنني لن أقول لك إلا أن تلك اللحظات التي عشتها مع القطط كانت أفضل بمليون مرة من تلك التي عشتها مع الإنسان.

أول قطة تعرفت عليها أسميتها غيلتي ، وهي قطة مفعمة بالنشاط والحيوية ، بيضاء وبرتقالية ، كبيرة قليلاً، وحينما كانت تأتي إلى النفايات كنت أنتشلها وأبعدها عنها قائلاً لها والابتسامة العريضة على شفتي: ((لا تأتي إلى الأوساخ ثانية يا غيلتي!! أنت أكبر القدر!!)).

عندما شاهدتها أول مرة كانت تمشي في حقل الفول الذي زرعه جدي، وفي أول مرة حاولت فيها التقرب منها هربت في الحال، ولكنني لم أيأس، تابعت في كل يوم محاولات التقرب منها ، ولكنني لم أنجح إلا عندما أحضرت لها خبزة عليها بعض من اللبن، ووضعتها على الأرض أمامي وابتعدت عدة أمتار، فلم أرى غيلتي إلا وتقترب من الخبزة فتأتي على مهل من حقل الفول ، بمشيتها الممشوقة.

لكنها على الرغم من ذلك كانت تلقي بنظرات الحذر وهي تترصدني، ثم أطبَقَت على الخبزة بفكيّ أسنانها وصارت تجرها إلى الوراء عائدة إلى حقل الفول ، لتوصل إليّ رسالتها : ((لا تظن أنني أعطيتك الأمان بعد)).

اليوم التالي، أحضرتُ نفس الخبزة ومن نفس نوع اللبن، لكنني اقتربت نصف متر أكثر، وكانت غيلتي قد خففت من حذرها ولكنها لم تصل بعد إلى الثقة بي ولو قليلاً، إذ إني عندما تقربت لأكثر من نصف متر كانت قد أخذت الخبزة وهربت بعيداً.

لست أنا من يستسلم للقطط!! وانطلاقاً من ذلك كررت قدومي إلى نفس المكان وفي نفس الوقت، غيلتي قطة خبيثة وأصبَحَت تعرف مواعيد قدومي مع الطعام، وأصبحتُ أجلب لها الكثير من أنواع المأكولات، فمرة أحضرت لها سمكة نيئة عندما جلب لنا أبي كيلو من السمك، ومرة ثانية البطاطا المقلية، وثالثة أحضرت لها فيها اللحم المشويّ ، وهكذا دواليك حتى جاء ذلك اليوم الذي تعلَّقَت فيّ به إلى حد لا يوصف.

لم أصدق أنني استطعت التقرب منها، لقد وصلتُ أمامها وأحمل بيدي قطعاً من البطاطاً المقلية.

-مياااو!! مياووو!!

قالت وفي عينيها لمعة من المحبة أكثر من تلك اللمعة التي تظهر على أعين البشر من حولي.

-كلي!! يا غيلتي الطريفة!! كلي واشبعي!!

قلت لها، ولم أتعتع يوماً وأنا أحادثها، إذ أنني في كل لحظة كنت منزعجاً فيها من البشر آتي إلى اللعب مع غيلتي، ولم أندم يوماً على ذلك!!

غيلتي لا تحقد، لا تكره، لا تخونني إذا لم أطعمها ولا تسخر مني في كل فرصة أُتيحَ لها فيها ذلك. استنتجت أن اللحظات التي قضيتها مع البشر كانت هدراً ولا قيمة لها، وتعد بمثابة إنقاص لعمر الإنسان.

وأما عن قولي ((ذكرياتي مع القطط ليست جميلة)) فإنني كنت أقصد فيها جدي، وليس القطط بالذات، فهو بشكل مباشر أو غير مباشر، خرب عليّ تلك الذكريات، فقام بإعدام غيلتي في اليوم الموافق لـ 22\4\2006م، وذلك رمياً بالرصاص.

سألته عن سبب فعلته الشنيعة وعينيّ اغرورقتا بالدمع، فأجابني بصوت حازم :

-إنها تسبب السل أيها الحمار!! أيها الولد الغبي!! تريد أن تصاب بالسل!! عليك اللعنة وعلى أمك اللعينة وتربيتها المنحوسة هذه!!

-اخرس.. لا تشتم أمي!! يا ذا عصا الأفعى وقلب الأفعى!!

-ماذا تقول!!؟؟ أنا جدك يا ابن الكلب!!

ثم ضربني ساعتها على رأسي براحة يده أكثر من أربع مرات، بقوة ما بعدها قوة، ولم أستطع الهروب إلا بعد أن أبكاني وسبب لي عقدة نفسية.

وأكاد أجزم أنه شارك في مؤامرة الكون ضدي، إذا أن الكون بأسره لا يريد لي أية سعادة حتى مع القطط.

13

لي أيام مؤلمة مع المدير الذي استلم بعد سمية في مدرسة الدكشة، ففي الفصل الثاني من الصف السادس كانت المديرة قد تغيرت، أتى عوضاً عنها مدير نظاميّ إلى حد كبير جداً، وأستطيع أن أقول لك أنه نظاميّ بشكل غير نظامي. قد تستغرب حين أقول لك ذلك، أو قد تعتبرني بهلواناً أو مجنوناً أو إنساناً قام بتأجير النصف العلوي من رأسه، لكن اسمح لي بتفسير رأيي بالمدير عبد الله ولو قليلاً:

إنه يعتبر أي إنسان يصعب عليه حفظ درس التاريخ، إمعة، أو قذر، أو مسخ مدنس من مسوخ التاريخ، وإن رأيه هذا كان من سوء حظي، فأنا ومع مودتي للمؤرخين جميعاً وأستاذة التاريخ وعلماء الماضي ودارسيه ومحبيه.. والأفاضل الكرام كلهم، لا أحب التاريخ، وأميل إلى التفكير بالمستقبل بمعزل عن وجود تاريخ فظيع أستند عليه، وأعتبر الحفظ عمل لا يقوم به إلا المجانين والموتى الذين ينكرون حاضرهم ومستقبلهم ولا ينظرون إلا إلى العقليات التاريخية البدائية ولا يشرعون إلا بالافتخار بالحديث عنها أمام أصدقاؤهم وزملاؤهم وحتى عوائلهم، ظانين في ذلك أن المدعو حفظ، يدعى ثقافة. أقول أنه لا بد من الاطلاع على التاريخ لمعرفة سير العظماء وغيرهم من المقاتلين الأشداء وكيف كانت الحروب والسياسات والحضارات وما إلى ذلك، ولكن، ليس علينا حفظه، فنحن أولاً لا نعني بمادة التاريخ ضرورة حفظها، بل الفهم وحسب، لكن تعال وناقش هذا الموضوع مع أساتذة التاريخ ودكاترة الجامعات، لن يفكروا فيه مجرد التفكير، وسيصرخون بملء أفواههم:

((التاريخ هو الحفظ وكفى!!))

لا يريدون منك أن تفكر، أن تبتكر، أن تبدع، فقط تحول إلى آلة قابلة لأن تتلقن كل شيء، وأن لا تستطيع تلك الآلة الإبداع، وعندها سيصفقون لك!! فالحافظ بنظرهم عظيم ولو لم يكن ذكياً، والمبدع بنظرهم فاشل ولو كان ذكياً، والذكاء عندهم هو العلامات على الورق، والشهادات البائسة التي لا تعبر إلا عن نجاح أكاديمي، وليست بالضرورة أن تعبر عن الذكاء والعقلية، خذني على سبيل المثال، يمكنني رسم كل تفاصيل وجهك على ورقة مستخدماً أياً من أنواع الألوان، وستبدو لك الرسمة كأنها أنت، ولكنني في المقابل لا أستطيع حفظ درس تاريخ واحد إلا بعد معارك طاحنة!! فهل هذا سيدل على أنني إنسان غبي!! وأما الذي يحفظ درساً فهو الذكي!! هذا ليس كلام منطقي وعقلاني.

إذا كنتُ في الصف السادس وأنا أعاني من التاريخ!! فماذا سيحصل معي عندما أصل إلى السابع فيكون لدينا كتاب تاريخ لوحده عيلنا حفظه كاملاً!! إذ أن التاريخ من الصف الأول وحتى السادس الابتدائي ليس إلا ملحقاً بمادة الاجتماعيات وليس له كتاب لوحده، والاجتماعيات تشمل التاريخ والجغرافية والقومية. كلها كانت مواد كرهة لدي.

وعبد الله ، ينظر إلي دوماً على أنني غبي، فقط لذلك السبب، فأصبحت أكره التاريخ بسببه أكثر وأكثر وكل ما يتعلق بالمادة التاريخية، فهو عندما كنت لا أحفظ درساً وتسمّع لي المعلمة وتخبره بذلك، كان يأتي ومعه عصا الخيزران فيضربني أكثر من عشر عصيّ وبكل ما أوتي من طاقة، وصوتي يرتفع في كل أنحاء المدرسة حتى أنه يصل أحياناً إلى بائع الفول الذي يتجول بعربته دوماً حول سور المدرسة، فبأي ذنب يفعلون بي ذلك؟؟

هذا المدير الوغد، له تسريحة شعر بدائية منذ الثمانينات، فيسرح شعره ابتداء من المنتصف وإلى الجانبين، آه كم أكره هذه التسريحة!! وكم كرهت تلك اللحظات التي جعلتني أمي فيها أسرح شعري على غرارها!! فبقيَت تسرح شعري بهذا النمط حتى صرتُ في الصف الثالث ولاحظت سخرية أصدقائي مني، فتوقفت عنها.

ولعبد الله أيضاً، علاوة على ذلك، ندبة في جانبه الأيمن من الوجه، كأنه مكويٌّ بسيخ أو ما شابه ذلك، وجهه كفيل بجعلي أكره الساعة التي خلق فيها البشر على وجه الأرض، فهو يقتل الأعصاب إلى حد كبير ومروع، يرتدي دوماً صندلاً بنياً يبعث على الاكتئاب في نفسي، ولا أدري لماذا.

كنت ألقبه في نفسي دوماً بـ أبو الندبة، وما جعلني أكره نفسيته المقرفة أكثر هو أنه يريدني أن أخرج في الطليعة دوماً مع بقية أصدقائي في الصف، حيث كان يقسم الصف إلى أربع طلائع، فنحن جميعاً أربعون طالباً في الصف، كل طليعة تشمل بهذا الشكل عشرة طلاب.

وأنا أكره الطليعة، فنحن نمشي بها سوية في صف كل واحد خلف الآخر بانتظام حين نذهب إلى بيوتنا، وتحدث مشاكل بيني وبين الأولاد الكرهين في صفنا، هناك أمجد الذي يقود طليعتي (فالقدر دوماً يقذف به إلى حيث أوجد أنا فقط ليزيد من عذابي) وهناك أيضاً السمين أبو العرق خضر، وهو كلما نظر إلي تقرب مني وصار يعصرني بكلتا ذارعيه فأصاب بالدوار والغثيان طوال فترة عودتي إلى البيت، أيام قذرة بما تعنيه الكلمة.

14

يوم 22\3\2006م : لن أنسى هذا التاريخ السمج في حياتي، ولن أكذب أو أكون منافقاً إذا قلت لك أنه أبشع أيام حياتي على الإطلاق، حدث لي ما لم أتوقع حدوثه في تاريخ نضالي ضد مؤامرات الآخرين عليّ.

استيقظت فيه وغسلت وجهي ولبست ثيابي لأذهب إلى المدرسة، وحين وصلت كنت متأخراً، فسألتني الموجهة عن اسمي ولم أستطع قوله لها، بقيت أتلبك مدة خمس دقائق ، وقفت أمامها كأبله وأحمق، لم أنسى تلك اللحظة في حياتي، خاصة أن تلك الموجهة شمطاء وكثيرة الكلام ، بالتأكيد ستحكي لزملائها المدرسين أنني أتعتع في الكلام، هذا إذا لم تسخر مني.

في النهاية سمحت لي بالدخول من دون أن تعرف اسمي، على الرغم من أنها سمعت مقتطفات منه أو بيانات، لو كانت ذكية، فإنها ستجمع تلك البيانات وتعرف اسمي في النهاية، لكنها ليست على ذلك النحو من الذكاء.

وقفت أمام باب الصف، خجلت من الدخول فأنا لا أحسن الكلام في هذه المواقف، هذا إن أحسنت الكلام في مواقف غيرها من الأساس!!

ولكنني سمعت صراخاً وأصواتاً كأنها منبعثة من جهنم، فأيقنت أن المعلمة لم تأتي بعد، متأخرة مثلي، قد يكون بحسب آراء المنجمين برجها موافقاً لبرجي على ما أظن.

فدخلت الصف ولم أصل بعد إلى مقعدي إلا ورأيت وجوه الجميع تتوجه نحوي بالسخرية واللمز والتنابز، ناهيك عن مجموعات هائلة

من العلك الممضوغ قذفت علي حينها، ثم ارتفع صوت سخرياتهم في العلالي، شعرت بالقلق والخوف والرهبة، تمالكني شعور بأنني قاذورة ليس لها كرامة، التفت إلى السبورة فرأيت كتابة بالخط العريض:

((بندوق ابن الزانية.. المتعتع .. أبو تأتأة المشهور))

وبجانب الكتابة رأيت سالي تقف بقامة ممشوقة وتحمل الطبشورة بكل ثقة، كأنها أنقذت العالم من وحش خطير حين فعلت ذلك، وقلبي تتسارع نبضاته، والبرود كسى ملامح وجهي، الدمعة سالت من عينيّ ولم أستطع إلا البكاء حينها.

كان أمجد وخضر يراقبان من النافذة ، ولا أعلم ماذا يراقبان.

صرخ أحدهما بصوت كصوت الخنزير:

-إنها دارين!! أسرعي سالي!!

أمسكت سالي الممسحة وصارت تمسح اللوح، ثم كتبت من جديد عليه خافية العبارات القذرة السابقة:

((دارين .. زانية كبيرة...))

وكتبت تحتها:

((بندق))

يا إلهي!! من أين يأتي القدر بأولاد الزانية ليسلطهم عليّ!! وكيف يصبح العالم قذر برمته إذا كنت ضعيفاً أمامه!! ما من أحد يشعر بي وبأزمتي في هذا العالم!! ما من أحد يا ناس!!

ركضت لعلي آخذ الممسحة من يدها فأمسح اللوح، لكنها ضربتني بقوة دافعة إياي على المقعد، فاصطدم عنقي بالمقعد، وصار الدم

ينزف مني، توجه أمجد من ناحيته إليّ وصار يلكمني في بطني، وهو يصرخ:

-ابن الزانية بندوق.. ابن الزانية بندوق..

بعد عدة لكمات أوقفته لين وهي تمسك بيده وتصرخ، صراخها كان يدل على ألمها لما حدث لي، لكن أمجد لم يقف عند ذلك الحد بل وإنه قام بشمط لين من شعرها، ثم أبعدها عنه وصارت تبكي.

عاد الجميع إلى أماكنهم عندما دخلت دارين الصف، لكن أمجد بقي أمامي ينظر إلي ومستعد ليوجه لكمة إضافية، ففوجئ بالمعلمة.

-رباه!! ما الذي يحدث هنا؟؟ ما هذا بحق السماء!! ما الذي تفعله بزميلك!! لماذا هذا الدم على عنقه!!؟؟

صرخت دارين، وأما ذلك الخنزير الوغد أمجد، فقد قال لها بخبث ودهاء منقطعي النظير:

-آنسة دارين!! كنت أؤدبه لكتابته اسمك بتلك الطريقة القذرة على السبورة!! انظري!!

يا له من وغد لعين!!

نظرت إلى السبورة وكاد يجن جنونها، فانقضت عليّ وما زال الدم ينزف مني، وشرعت بضربي بكل مكان من جسدي ، ولا أدري لماذا لم يدافع عني أحد، حتى لين لم تكن لتقول الحقيقة.

كعبها قوي حقاً!! هذه المعلمة!! ولكمتها كأنها لكمة من ملاكم قوي!! كنت سأقول لها الحقيقة حتى ولو تعتعت بالكلام، لكنني لم أستطع ذلك لأنها لم تتح لي الفرصة.

ثم تركتني وما زالت تشهق وتزفر مأخوذة بالموقف تماماً، مصدقة تمام التصديق كل ما كتب على السبورة، ثم خرجت من الصف مسرعة تصرخ:

-سأريكم أيها الأولاد القذرون!! مدرسة أوغاد وسفلة!!

نظرت إلى الخلف لأعرف لماذا لا أحد يقف إلى جانبي، فرأيت الجميع صامتين ولا يتجرأ أحد منهم على الكلام، تنظر إليّ لين بنظرات شفقة، وحتى القلة من طلاب الصف والذين كانوا يدعمونني سابقاً أصبحوا الآن صامتين ، فأمجد وعصابة الصف يرهبونهم دوماً ويجبرونهم على ترك الدفاع عني، وهكذا تحاك المؤامرات فقط ليقتلوا فيّ شخصيتي ويهمشوا لي إنساني!

جاء المدير يلهث مع دارين، فحملني عن الأرض وهو يشتمني ويقذف بالبزاق على وجهي، تارة يبزق وتارة يشدني من شعري فينظر إلي بعينين حاقدتين ملؤهما الغضب، ويلومني على شيء لم أفعله من الأساس.

-لا تقلقي آنسة دارين!! سأجعل هذا الحمار عبرة لمن يعتبر في هذه المدرسة، سأقوم بربطه كالكلب أمام جميع الطلاب في الساحة على عمود الكهرباء، ومن حقك فعل أي شيء له.

-لا، لن أقرب هذا القذر مجدداً، أنا أكبر من التنازل للتافهين!!

-إذا أردت يمكننا أن نستدعي والديه!!

-لا، لا أريده هو ولا أريد والديه!! كلها تربية فاشلة وقذرة..

آه لو أستطيع إخبارهم بما حصل!! فقط لو أنني أملك اللسان الذي يملكه أمجد، لكن.. يا للأسف!!

أخذني المدير، والجميع صامتين، ونظرات أمجد وسالي وأفراد العصابة الآخرين كانت تقتل فيّ كل شيء، حتى الرغبة في أن أكون حياً، شعرت لو أنني ميت لما كنت سأتألم، لو لم أولد لما حدث ما حدث!! أحسست بأنني فقدت كل ما بداخلي.

جرني أبو الندبة كأنني كلب من كلاب البرية، أمام الطلاب، نظروا إلي يسخرون مني وهم يمرون عبر الكريدور، وارتفعت أصوات ضحكهم خارجاً في الساحة، ربطني المدير على عمود كهرباء كان في زاوية الساحة إلى الجهة الشرقية، وطلب من الطلاب فعل أي شيء يريدونه بي عدا قتلي أو تعذيبي، وصدقني حين أقول لك ذلك.

فصار البعض منهم يرمي عليّ بأكياس الشيبس والبسكويت، والبعض الآخر يعبث بوجهي، حتى أن أحدهم عملها عليّ. حدث ذلك دون أي تفكير من المدير في عواقب ذلك.

لم يحدث هذا فقط، بل عندما عدت إلى منزلي استقبلني أبي بالسوط وصار يضربني في كل مكان مسكين من جسدي، على الرغم من أنني كنت أشبه فرخاً منتوفاً من الدجاج حين دخلت المنزل، نمت في تلك الليلة أبكي بقهر لا مثيل له، ووجعاي: الجسدي والمعنوي يدويان في السماء.

15

صحيح أنني خجول، ولكنني إنسان! عندما تسخر مني أشعر بالنقص، وعندما تنتقص من قيمتي أحس بالذل، وإذا حدث وأهنتني أدرك عندها نقصي وتضعف معنوياتي مع الزمن، ليس من حقك أن تعاملني كما تشاء لمجرد أنني خجول، فأنا أمتلك المشاعر ، شأنك أنت وشأن الآخرين.

وليس من حقك أيضاً-سيدي- أن تستغل ضعفي لصالح ضحكك ،و لصالح سعادتك أنت وأصدقاءك. السؤال الذي سأطرحه عليك الآن هو :

-لماذا لا تحس بي؟؟ لماذا؟؟!! هل أنا إنسان مستحقر إلى ذلك الحد الذي ينفيني من عالم البشرية!؟ وهل أنا حقاً أستحق أن أكون خجولاً؟؟ بحق الرب أخبرني ما ذنبي إن خلقت خجولاً إلى حد مبالغ فيه؟؟!!

أجبني!! أنا هنا أحادثك!! لماذا لا تتركني وشأني فحسب!! لا أريد دعمك ولا شفقتك، ولا حتى نظرة منك، فقط اتركني وشأني!!

إذا كنت بالفعل من أولئك الذين يتركون للإنسان حرية حياته وأن يعيشها بطريقته الخاصة فسأهنئك بحرارة. بالإضافة إلى ذلك فإنني سأمد يدي إليك لأصافحك في هذا العالم الذي ندر فيه أمثالك.

أوه! حقاً؟

أجل! ندر فيه أمثالك يا عزيزي!

ولكنني في ذات الوقت أريد أن أشفى من خجلي، آه فقط لو أستطيع أن أكون جريئاً لأكون أسعد إنسان على وجه الأرض! وبرغم ذلك

فإنك تجد هذا العالم القذر يحتوي على عدد هائل من المنافقين ذوي الألسن الفصيحة، وعدداً صغيراً جداً من الصريحين ذوي الألسن الخجولة!! في حالتي أنا، إذا شاركت في لعبة لا أتكلم، فيكرهني أصدقائي، وإذا اقتحمت حفلة كأنني إنسان غير مرغوب فيه، بقيت أجلس وحدي دون رقص ودبكة وطرب، وإذا صدف وصرخت ذات يوم لا تسمع صراخي إلا كمواء القطة.

أنا ذلك الإنسان المستحقر، هذا وحده من شأنه أن يجعلك تشعر بالشفقة تجاهي، وأقسم أن شفقتك تلك، هي أكره ما عليّ في هذا الكون.

ليتني أعذب، أحرق أو أدفن في مكان ما، ولا أرى أحداً يشفق علي، الشفقة، ذلك الشعور الذي يخبرك بأنني إنسان مهزوم وبأمس الحاجة لك بغض النظر إن كنت سيئاً أم لا.

بشكل مروع، فإن الإنسان النبيل يقضي وقتاً قصيراً من حياته في الحماقة ووقتاً أطول في امتصاص الصدمات من الآلام والعذابات ، ومدة طويلة جداً في تحمل ذلك المقدار الهائل من نفاق البشر وأمراض المجتمع البائس. صدقني أو لا تصدقني، أن البشر قدر الإمكان يحاولون التقليل من قيمة الإنسان إن كان معافى فكيف إن كان يعاني من عقدة نقص أو عاهة مثلي؟؟ أنا.. أكبر عاهة عرفته البشرية.

لا تقل لي بإنسانية "أنت لست عاهة.. أنت إنسان!" ، هذا غير صحيح، فنظرات الجميع تخبرني أنني عاهة، أصواتهم، حركاتهم، شفقتهم وحزنهم عليّ ، جميعاً تصرخ في أذني لتخبرني أنني عاهة وكفى!!

16

أكبر مثال على أنني إنسان تافه جداً، أن أمي طلبت مني ذات يوم الذهاب إلى بقالية أبو العلا الموجودة في نفس المنطقة التي أعيش فيها، إنها لا تبعد عن منزلنا إلا مئة متر إلى يمين الشارع العام، وقد حدثت معي في ذلك اليوم قصة لم أنساها في حياتي.

أوصتني أمي لأحضر الخبز، وكيساً من الطحين، لاحظ أن هناك حرف كاف في كلمة كيس، علاوة على ذلك فقد طلبت مني بالفعل وبكل ثقة منها فيّ أن أحضر لها كيلو من البندورة، تخيل ذلك المقدار الهائل من التقزز حين سأقول للبائع :

-أعطني كـــ كـــ ـــ كيساً م م م ... مـــ من الطحين..

و و و و.... رررر ربطة خـــ خـــ خبز..

وأ أ أيضـــ ضاً كـــ كـــ...كـــ يلو.. بـــ بـــ بندورة

تخيل!! تلك القصيدة النشاز القذرة!! وهذا المطرب الفاشل الذي يسكن في داخلي! أجل يا سيدي فأنا إنسان فاشل لا يحسن التعامل مع حرف الكاف في (كيلو) ومع حرف الباء في (بندورة) ومع حرف الخاء في (خبز)، تصور مدى تفاهتي وقبح شخصيتي!!

فكرت عندما كنت أمشي ألف مرة ، وخططت مراراً لأن أجعل نطقي سليماً، دون مستطاع، دون قدرة، ودون أدنى ثقة مني بنفسي، علماً أنني أستطيع نطق كل تلك الكلمات بشكل سليم مائة في المئة إن كنت لوحدي أو أجالس الحيطان.

تلك الحيطان هي الوحيدة التي تستطيع سماع قصيدة متناغمة من فمي، وأما الكائنات الحية التي تدعى بشر، فأقف أمامها مهزوماً، منكسراً وضعيفاً.

قلت في نفسي وقد وقفت أمام البقالية، أنني حقاً إنسان مثير للمتاعب، فإن حدثت معجزة وتزوجت مستقبلاً-ولا أظن أن ذلك سيحدث- فإن زوجتي ستكون تعيسة معي إلى أبعد حد ممكن، بل وستتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها، هذا إن لم تنتحر صبيحة يوم زواجنا إذا عرفت أنني لا أستطيع الوقوف أمام صاحب البقالة، ولماذا صاحب البقالة؟ بل قل إنني أجد صعوبة في تمالك نفسي حتى إذا وقفت أمام الصبي الذي يعمل لدى صاحب البقالة فكيف بصاحب البقالة نفسه!!

موظف المحاسبة، مدراء الشركات ومساعديهم، العساكر، الطلاب ، الأساتذة، الدكاترة، وزراء الدولة، وحتى الشحاذين، جميعاً سألقى حتفي ألف مرة إذا قابلتهم، من الناحية المعنوية.

أصدقك القول إذا أخبرتك أن أكثر ما يعيب الرجل هو الخجل، فكيف إن كان مصحوباً بالتعتعة في الكلام!! فالفتاة مثلاً قد يعتبرونها ملاكاً منزلاً من السماء إن كانت خجولة أو تتعتع، وأما الرجل!! فعليه أن يكون رجل!! وليس من الرجولة أن تخاطب أحدهم لأول مرة فتقول له:

-مـــ...مـــ...مـــ.. مرحباً...

هذا ليس كلام!! عليك أن تقول مرحباً، وأنا لا أستطيع ذلك، وقد اختراني القدر من بين الآلاف لأكون ذلك الأهبل الذي يتلعثم كلما أراد السلام على أحدهم، وكلما سأله أحدهم عن اسمه، وكلما طلب منه شخص ما الحديث في موضوع ما، وهذا الموضوع الـ ما قد

يحتوي الكثير من حروف الألف والكاف والميم والقاف والطاء والخاء ، تلك الحروف القذرة.

تخيلت عصر ذلك اليوم حين استيقظت على إثر حلم فظيع، كنت قد حلمته وعشته بكل تفاصيله ، وهو أنني رأيت زوجتي المستقبلية تجلس مع صديقتها وتقول لها حاملة فنجان القهوة العظيم:

-زوجي!! أنا من عليها أن تحضر له البندورة!!

فتتسع عينا تلك المخلوقة الثرثارة التي تجلس معها من الدهشة، وتقول لها:

-أنت تحضرين البندورة!! ولكن لماذا لا يحضرها هو بنفسه!!؟؟

فتجيبها ممتعضة وشفتيها ترسمان ابتسامة سخط:

-لأن هناك حرف باء في أول الـ (بندورة).

-.....!!

-أجل.. لا تسأليني لماذا وكيف!! فقط لأن هناك حرف باء!!

-ماذا عن الطماطم!!

-نفس الحالة أيضاً يا عزيزتي!! لأن فيها حرف طاء..

-الكرة حمراء اللون والتي تؤكل..

-ما بالك؟ هل تحسبين أنك ستنفعينني بهذا الشكل؟ ماذا عن حروف ك، ح، ل، ت، وفوق كل ذلك الهمزة!!

هذا الحلم كان فظيعاً، لدرجة أنني استيقظت بشكل مرعب وصرت أصرخ في الأرجاء حتى هرعت إلى أمي كقذيفة جالبة معها كأس ماء، أشربتني إياه وأنا ما زلت أتصبب عرقاً وألهث خوفاً، إلا أن

احتضانها لي ساعدني في استرجاع قواي. لكن الصدى لم يقف عن التردد في داخلي يوماً.

بقالة أبو العلا ممتازة جداً، على الرغم من أن أسعاره خيالية ويصفه أهل المنطقة فيقولون عنه ((أوه!! يا إلهي!! إنه أبو العلا السياحي!!)) نظراً لأن أسعاره سياحية، ولكن محله محترم يا أخي، فيه الكثير من الأشياء مما يجعلك تستغني عن الذهاب إلى المدينة لإحضارها، وتصطف في مقدمة البقالية على مرأى الناس مجموعة من الصناديق الكبيرة والمقسمة إلى فئات، كل فئة لنوع من أنواع الخضار، وفي داخل البقالية كل شيء تريده من مأكولات ومشروبات، عدا الأطعمة الجاهزة، حتى إذا أوصيت أبو العلا السياحي عن قالب من الحلوى فإنه سيحضره لك، وبالتحديد كما تطلب، لكن ثق تماماً أنه سيأخذ ضعف ما يأخذه صاحب متجر الحلويات.

على كلّ، ليست هذه المشكلة، الأهم الآن: كيف سأخبر أبو العلا بأنني أريد كيلو بندورة! وربطة خبر! وكيس طحين! كيف؟؟ إذا أخبرتني بطريقة تجعلني ما تجعلني فيها أطلب من أبو العلا ذلك فسأنفذ لك كل ما تريده مني كأنني خادم بين يديك، فقط أطلعني على الطريقة، فإن ما يحتاجه الخجول من معنويات تماماً كالذي يحتاجه مدمن المخدرات للمخدرات.

اهتز بدني وما زلت أقف أمام البقالة ، لا أستطيع الدخول، نظرت إلى لافتة المحل فارتعبت أكثر وأنا أقرأ اسم أبو العلا، وعلى فكرة، هو رجل لا يستهان به، ذو جثة كبيرة ورأس يشبه القرع، وعيون غاضبة محتدة كمغارة من الغربان، وجبين مقضب كأنما هو وحش من العصر ما قبل الكامبري.

فكرت: لن أدخل إلى البقالية لأهين نفسي، وأفضح عقدة لساني.

فعدت إلى المنزل، ولكنني خطرت في بالي فكرة وددت لو أنفذها، وهي حقاً بدت جنونية لكنها ستفي بالغرض، وصلت إلى المنزل، سألتني أمي عن الحاجيات فقلت لها أنني لم أذهب بعد لأحضرها ولكنني ذاهب الآن، أخذت هاتفها المحمول من على الطاولة التي بجانب سريرها، ثم فتحت المسجل، وسجلت صوتي وأنا أطلب كيساً من الطحين، وكيلو بندورة، وربطة خبز.

أخذت الهاتف معي وأنا سعيد كأنني أصبحت ملك العالم، وتوجهت من جديد إلى بقالة أبو العلا السياحي، وحين وصلت رأيت أبو العلا يضع علباً من المحارم فوق بعضها البعض على أحد الرفوف، وقد كان بعيداً ومن غير الجيد تشغيل المسجل الآن فلن يسمع الصوت، لذلك وقفت أنتظره لعله ينتهي.

بقيت أنتظره وهو يصفف أغراضه ، مستغرقاً في ذلك ربع ساعة، ولم يلحظ وجودي حتى الآن، ثم اكتظ المحل بالناس فجأة كأن القطيلبية تحتوي عدداً من السكان أكثر من سكان طوكيو!! وأرجح أن ذلك قد حدث نظراً لحظي المشؤوم والعاثر، لم أعد أستطيع تشغيل المسجل الآن، انتظرت وانتظرت حتى ذهبوا جميعاً وبقيت وحدي وظل أبو العلا السياحي متصفناً بوجهي دقيقة ينتظر مني الجواب، بينما بقيت أعارك الموبايل ليفتح ولكنه لم يفعل، إذ كتب أن البطارية منخفضة ثم ظهر الظلام الحالك يسود الشاشة.

-يا ولد!! يا هذا!! يا ابن الآدمي!! اطلب طلبك بسرعة فلدي عمل كثير هذا اليوم ولست متفرغاً لك!!

قال أبو العلا السياحي، وعلى وجهه علامات الشحوب.

فرّيت كما يفر فأر جبان من البقالية وأنا ألعن الهاتف وألعن أكياس الطحين.

-تباً لكل أكياس الطحين في العالم!! تباً لأقراص البندورة!! فليختفي الخبز!!

صرخت بكل ما أوتيت من قوة، وعدت إلى المنزل أجر خيبتي معي، وأذكر أنني أخبرت أمي بعدم مقدرتي على جلب الأغراض، وتفهمت أمي وضعي وذهبت لتشتري الأغراض بنفسها.

حدث ذلك عندما كنت في الصف الرابع، ومن ذلك الحين وأمي لا ترسلني لشراء الحاجيات.

17

-صح لما خطأ؟ أيها العصافير الصغار؟؟ عندما أقول أن هناك في الحياة كثير من الأمور التي نريد أن نعرفها؟ والكثير من الأمور التي لا نريد أن نعرفها أيضاً؟

هذا أول ما قالته لنا المعلمة زمرد بعد مجيئها إلى مدرستنا، ففي الشهر الأخير من الصف السادس نقلت دارين وأتت مكانها هذه المعلمة. تقول زمرد في كل جملة أو سؤال أو استفسار عبارة "صح لما خطأ"، وإنني حتى الآن لا أعرف لماذا تفعل ذلك، فإنها كانت تستطيع أن تقول "صح أم خطأ" عوضاً عن "صح لما خطأ" ، لكنها تقول الأخيرة. أظن أن لديها شيئاً في عقلها أو أن هناك خطب ما بها جعلها تقول ذلك، ففي علم النفس وكما قال لي دكتوري العظيم م. م. ك فإن أولئك الذين يقولون عبارات غريبة في أثناء الكلام ويكررونها هناك خطب ما في نفسياتهم، إما أنهم يعانون من شيء ما في حياتهم أو أنهم يعانون من نقص في أنفسهم، لكنني لا أعرف ما هو الشيء الذي تعاني منه زمرد.

ثم أكملت وهي تمسك تنورتها البيضاء بيدها اليمنى، حرصاً عليها لكي لا تأتي نسمات تحركها وتجعلنا نرى ما خلفها (مع أنها كانت تستطيع أن تلبس جينز أو بنطلون أو أي شيء آخر عدا التنورة القصيرة بدلاً من لبسها والحذر منها):

- صح لما خطأ؟ لما نقول أن هناك أشياء يحب الإنسان معرفتها وأشياء لا يحب معرفتها؟ صح لما خطأ؟ لما يأتي إلينا شخص نحبه ونعلم عنه أشياء خطيرة لم نكن نريد معرفتها في الأساس لأننا نحبه؟ صح لما خطأ؟؟!! لما يأتي إلينا شخص نكرهه ونعلم عنه

أشياء جيدة وحسنة مع أننا لم نكن نريد معرفتها في الأساس لأننا نكرهه؟ صح لما خطأ؟؟ صح لما خطأ؟؟!!

رفع أحد التلاميذ يده ممن يجلسون في الصف الأمامي، أشارت له المعلمة برأسها.

-ماذا يا معلمة عن أننا نكره الجميع سواء كنا تحبهم أم لا؟؟!!

ضحك الجميع. تساءلت المعلمة مستغربة.

-ماذا تقصد؟؟ صح لما خطأ؟؟..!!

-أقصد يا آنسة.. فلنفرض أن هناك إنساناً لا يحب أحداً سواء إن كان يحبه أم لا، فكيف له أن يعلم الأشياء عنهم؟؟

-مع احترامي الشديد أيها العصفور الصغير، صح لما خطأ، لم أفهم شيئاً مما تقوله.

-معلمة!! كيف لم تفهمي!!؟؟ أقصد مثلاً عندما تحبين شخصاً وأنت تكرهينه ، فكيف لكما أن تعرفها الأشياء عمن تكرهانه؟؟!! هذا صعب يا معلمتي!! لذلك أنا أتجنب من أكرههم!!

-صح لما خطأ....!!!!

هذا هو النقاش المجنون الذي دار بين معلمة مجنونة، وطالب قد أجّر نصف رأسه العلوي، وأما نحن فكنا نضحك حتى تكاد خواصرنا تطق من الضحك، حقاً إن الضحك شيء مفيد يا أخي!! فهناك الكثير من الناس وعندما تراهم تجد من خلال تصرفاتهم وكأنهم يصرخون لك "نحن هنا.. نحن مجانين فاضحك علينا"، وإن ذلك الطالب الذي أضحكنا منذ قليل ينمتي لهذه الفئة، بالإضافة إلى زمرد فهي من نفس الطينة.

-صح لما خطأ..!! كيف تقول ذلك؟؟ عليك إعادة صياغة جملك كلها!! ما زلت لم أفهم شيئاً!! ثم أخبرني يا عصفور .. ما اسمك؟؟

-اسمي رائد.. ولكن يا معلمتي أجيب عن السؤال أرجوك!! بقيت طول الليل أفكر فيه!! كيف لنا أن نكره من نكرههم!! وبالأخص كيف نستطيع معرفة ما نعرفه بشكل قد لا نعرفه!!

بدأ هذا الرائد الأبله يرفع لي ضغطي، وإذا أخبرتك أنه يستحق جائزة نوبل في القدرة على قتل الأعصاب ورفع الضغط فصدقني. لقد وقفت المعلمة أمامه كالبلهاء تحدق في عينيه القذرتين، وتظن أنه يتحدث شيئاً مفهوماً ولكنه في المطلق لا يعرف ماذا يهذي وماذا يقول، بل إنه يفعل ذلك قصداً ليصد المعلمة عن إعطاء الدرس أو يجعل منها أضحوكة. عندما تنظر إليه تشعر وكأنه من أولئك الذين يضعونهم في سجون التعذيب ليعذبوا المجرمين، فهو يمتلك مقداراً من الغلاظة يفوق الجبال.

-اسمع أيها الولد!! صح لما خطأ!! بدأت ترفع لي ضغطي!! اجلس!! اجلس واخرس!! وكف عن الكلام الذي لا فائدة منه!! صح لما خطأ..!!

-ماذا تقولين؟؟ كلامي لا فائدة منه!! هل أنت معلمة حقاً؟؟ أنت لا تعلمين أن سقراط نفسه قال ((إذا كنت لا أعرف شيئاً فهذا لأنني لا أعرف شيئاً)) وأنت تقولين أن كلامي الفلسفي العظيم ليس ذو فائدة!! ما هذا؟؟!! هل أنت معلمة حقاً؟؟!!

-صح لما خطأ، صح لما خطـأ، صح لما خطأ..

بدأ صوتها يرتفع، وأعصابها على المحك، بدت كما لو أنها تستعد للانفجار. ثم تابعت:

-صح لما خطأ!! بدأت أصاب بالدوار منك!! أجل، إن كلامك لا فائدة ترجى منه!! وهو ليس فلسفة أيها الحمار الصغير، كما أن سقراط لم يقل ((إذا كنت لا أعرف شيئاً فهذا لأنني لا أعرف شيئاً)) وإنما قال ((أنا لا أعرف شيئاً إلا أنني لا أعرف شيئاً صح لما خطأ)) أوه!! أيها الحمار الصغير!! لقد سببت لي الصداع!! أوه!! يا إلهي!! انضرب واجلس.. هيا.. صح لما خطأ انضرب واجلس!!

تابع الولد يكمل ، بينما زمرد بقيت تفرك رأسها من الصداع وتغمض عينيها:

-ولكن!! مع احترامي لسقراط!! بهذا الشكل نكون قد غيرنا المفاهيم المعرفية!! من أين نعرف الأشياء التي لم نرغب في معرفتها والتعرف على تلك الأشياء المعروفة!! هذا ينافي المنطق!! ثم إن.... ثم إن....

لم يستطع إكمال كلامه وأتته صفعة قوية من زمرد جعلت وجهه كالبندورة من شدة الخجل، ولكنه لم يقف أبداً عن الثرثرة في تلك الأشياء الغير مفهومة، حتى وصل الأمر وقتها بالمعلمة لأن تحضر العصا وتضربه، وهكذا كانت أول لحظاتنا مع الآنسة العظيمة زمرد، مع أن ليس لها علاقة بالعظمة لا من قريب ولا من بعيد. في ذلك الوقت وبعد أن جعلت زمرد رائد متورم الوجه واليدين من شدة الصفع والضرب، كانت قد بدأت تعرف عن نفسها وتأخذ أسماء الطلاب، حينها تعتعت في اسمي كالأبله من جديد ثم جلست ، بعد ضحك كل من في الصف علي، ولكن الأمر الذي فاجئني أن المعلمة نفسها صارت تضحك عليّ بشكل مبالغ فيه وشرعت تردد اسمي بشكل تلعثمي فقط لتسخر مني! فإذ بها قالت بعد أن لفظت اسمي متعتاً:

-أووووو! إذاً لدينا في الصف معتوه آخر!! ألا يكفي رائد!!
والأجمل من ذلك صح لما خطأ، أن هذا المعتوه يتعتع في الكلام!
أوه!! يا إلهي!! سأحظى بمتعة حقيقية معكم أيها الحمير الصغار!!
قال اسمه بـــ بـــ بن..بن ... بن ... بندق... هاهاهاها....

ارتفع صوتها في العلالي وقد رفعت رجليها على الطاولة كأنها باشا لا كأنها معلمة، وكررت اسمي بتلعثم أكثر من خمس مرات طوال الحصة، تضحك هي، ويضحك الطلاب، وأنا الوحيد الحزين، ولم أستطيع أن أطالب بحقي يوماً ولم أتمكن من إخبارها أن ما فعلته ليس مضحكاً أبداً، بل إنه مزعج إلى أبعد الحدود، لم أستطع أن أقول لها أن ما فعلته للتو سيبقى عالقاً في ذاكرتي كالعلقم إلى الأبد.

18

أيقظتني أمي في تمام الساعة السابعة صباحاً، في يوم جمعة حيث لا مدرسة ولا مزيد من الكلام بكلمات فيها حروف الألف، سأرتاح هذا اليوم من إزعاجات الطلاب المتكررة ، وسخرية

المعلمين والمعلمات، يومي الجمعة والسبت أعتبرهما أيام سعدي حيث لا مدرسة، لا تطفل من الآخرين، ولا إزعاج من الحمقى، فأبقى وحيداً في منزلي أقوم بالأشياء التي أحبها على كيفي دون أن يكتشف أحدهم أنني خجول، ودون أن يطلب مني أحدهم لفظ كلمة مستعصية عليّ .

لكنني صعقت عندما قالت الماما لي :

-هيا استيقظ والبس ثيابك يا بندق!! هيا!! اليوم موعدك مع الدكتور م. م. ك!! يتوجب عليك الاستيقاظ في الحال!!

-ماذا قلت؟؟!! ولماذا طبيب نفسي من جديد!! لماذا؟؟!! ألم تفهمي بعد يا أمي أن لا نفع لي!! لا فائدة ترجى من محاولاتك في تحسين حالتي!! ألا تفهمين أن الله خلقني إنسان خجول وحسب!! ما علي إلا أن أكون خجولاً ومتعتعاً وكفى!! افهمي يا أمي!! افهمي!!

-رباه!! فليساعدني الرب عليك!! فليصبرني عليك يا بندق!! قلت لك أنني سأجد لك طبيباً يشفي عقدة التعتعة اللعينة هذه!!

-ستبقين في الشقاء إذاً طوال حياتك!!

-هيا قم..!! قم..!!

رفعت اللحاف عني بسرعة حتى ظهرت لها مغطى بطبقات من الملابس ، فقالت متذمرة:

-كعادتك!! ترتدي الكثير من الملابس حتى أثناء النوم!! متى تكف عن هذه العادة السيئة وخاصة أننا في عز الصيف؟؟!!

لم يكن هناك باق من العام الدراسي إلا شهر ونمتحن وننتهي من بؤس المدرسة فيأتي الصيف الجميل والمريح، وأتمكن من قضاء

أيامي جميلة دون كدر، وها هي أمي تعكرني بالذهاب إلى طبيب نفسي من جديد!!

لم أستطع مخالفتها، استيقظت ولبست ثياب الطلعة ، وكانت أمي تضع مساحيق التجميل على وجهها حين شرعتُ بتنظيف أسناني، وكنت يائساً جداً من هذا اليوم وفاقداً لعزيمتي بشكل كامل، فأنا ذلك الإنسان الذي لا فائدة ترجى منه، وأثق بذلك إلى أبعد الحدود.

كانت أمي ترتدي بنطلوناً كحلياً وقميصاً أبيض، وشعرها بدا لي كأشواك القنفذ، حين رأتني من جديد صرخت بوجهي قائلة:

-هل ستبقى ترتدي هذا البنطلون الأبيض طوال حياتك!! لديك الكثير من البنطلونات الجميلة غير هذا!! إلهي!! اذهب وبدله في الحال!! في الحال!!

-ماذا تقولين يا أمي!! إنه يعجبني!! المفضل لدي!! وهل أنت من ترتدينه أم أنا!!؟؟

-بالطبع يا عزيزي أنت الذي ترتديه!! ولكن هناك ما هو أفضل منه!! على الأقل تغير!! لا تبقى ثابتاً!! لا شيء يبقى كما هو!!

-عليك أن تتحمليني، كل الناس قد يتغيرون إلا أنا، أبقى كما أنا وضيع وحشرة سخيفة تداس بالحذاء، لذلك لا تتعبي نفسك.

-أوه يا بني!! لم أكن أقصد ذلك! من أين تفهم الكلام أنت؟؟!!

-بالتأكيد من عقلي وليس من مؤخرتي!!

-هل رأيت!! دائماً ما تفهمني بشكل خاطئ!!

-أنا لم أفهمك بشكل خاطئ، كنت ترمين إلى ذلك منذ البداية، لتوصلي إلى مخي السميك أنني حشرة لا تتغير، وبعد ذلك لتظهري

لي أنني أفكر من مؤخرتي، أعرف يا أمي مدى شعورك بالخيبة لأنك أنجبت شخصاً مثلي، أعرف ذلك جيداً فلا تنكري!! يتوضح ذلك لي من خلال لكنتك، ومن خلال تعابير وجهك!!

-آه منك يا بني كيف تفكر!!

اقتربت مني وضمتني إلى صدرها، لا أعرف لماذا شعرت برغبة في البكاء، لأنني أثق كما أراك الآن أن لا فائدة من كل محاولات أمي في جعلي إنسان.

-لا تتكلم عن نفسك هكذا في ما بعد.. يا لك من أحمق....!!

لم يكن صوتها سعيداً، بصراحة لم يكن فيه إلا الخيبة.

وقفنا على رصيف الشارع العام، حيث تقف أغلب الحافلات هناك، وكانت الشمس قوية فذهبت وأمي إلى الموقف لننتظر هناك أية حافلة ذاهبة إلى المدينة جبلة، وعلى ما يبدو أن اليوم سيكون مزدحماً مع أنه يوم جمعة، لا أقصد الزحام في المدينة وإنما في منطقتنا، فنحن في القطيلبية نغتنم دوماً أن يوم الجمعة هو يوم جمعة، ولا زحام فيه، فنقفز ونذهب إلى المدن، مع أن ذلك هو شيء طبيعي، إلا أنني لا أجده طبيعياً، فإذا ظن جميع سكان المناطق أن يوم الجمعة لا زحام فيه، فإنهم سيقفزون جميعهم كما قفز سكان القطيلبية إلى المدن، وعند ذلك سيحدث الزحام، دون أدنى شك.

ها هي علبة كبريت طويلة لها عجلات تطل على مرأى نظر كل منا، ثوان و وقفت الحافلة أمامنا، صعدت وأمي ورجل عجوز كان يقف في نفس الموقف منذ البداية، وكان يشعل سيجارة في فمه من نوع الحمراء الطويلة، جلست وأمي في المقعد الأول من المقاعد الخلفية ، أنا على النافذة وأمي بجانبي، وعلى اليمين جلس العجوز على آخر معقد متاح، صرخت عجوز شمطاء من خارج الحافلة :

-قفوا!! أنا ذاهبة أيضاً إلى جبلة!! قفوا!! ولدي موعد مع الدكتور!!

صرخ سائق الحافلة بصوت جامح رعديد:

-ابقي مكانك!! لا تدخلي!! لا تقتربي!! مقاعد الحافلة جديدة ولن أسمح لأحد بأن ينزعها!! رجاء ابقي في الموقف وانتظري حافلة ثانية!!

-يا ابن الحرام أنت!! كل سائقي الحافلات أمثالك هم أولاد حرام!!

انطلق بنا في سرعة بعد أن أغلق العجوز الذي بجانب أمي الباب، وهكذا كان النهار معكراً من أوله، وصارت رأسي تدق طبول الحرب كأنها مقبلة على جبهة رهيبة.

أخرجت أمي علبة كلورتس ، وطلبت مني أن أمضغ علكة منها لكي لا تفوح رائحة فمي أمام الدكتور، وهذه الكلورتس منعشة وتقضي على الرائحة ، فقد كانت أمي تحتفظ بخزائن منها في المنزل كاحتياط إذا حدث وانقطعت من السوق.

شاهدت المناظر الطبيعية من وراء النافذة، بينما أمي بقيت تحدق إلى الأمام، وإنني أدرك من دون أن تقول لي، أنها ليست من هواة الطبيعة، وأما أبي فكان يقول لي دوماً أن الطبيعة عوراء وليس فيها شيء من الجمال على الإطلاق، ويضيف بابتسامة جامحة:

-أفضل الجلوس في إسطبل على أن أشاهد المناظر الطبيعية..

وقد استغربت حين وجدت المقعد الذي أجلس عليه ممزقاً من الناحية الخلفية بشكل صغير، على الرغم من أن السائق قال أن طقم المقاعد جديد، يبدو أن الزبائن سريعون جداً في تخريب الأشياء، حقاً إن الناس يكرهون الجمال إن كان في شيء لا يمتلكونه.

يستغرق الوقت عادة عشرين دقيقة للوصول من القطيلبية إلى كراج جبلة الجديد، ولم تمض ثمانية عشرة دقيقة إلا وكانت الحافلة في قلب الكراج نظراً لسرعة السائق ، فقد كان أبو كمال سائق الحافلة ذو دم حار على ما يبدو، وهو مستعد لأن يحرص على المقاعد من أن تمزق، ولكنه ليس مستعداً أبداً أن يحرص على الركاب أثناء الطريق. وأمي كانت أثناء انطلاقتنا معه تصرخ كلما رأت شاحنة تكاد تلامس الحافلة، وتصرخ معها امرأة أخرى تجلس خلفنا، آه من طبع النساء!!

خرجت وأمي من الحافلة كباقي الركاب وتوجهنا بسرعة إلى حافلات (كراج-مشفى-ضاحية) والتي ستقلنا مباشرة إلى حيث ساحة شباط في المدينة، وهي الساحة التي يوجد فيها الدكتور م. م. ك الذي يرشدني نفسياً حسب ادعاء أمي، مع أنه لا يفعل شيئاً إلا أنه يؤلف الكثير من العبارات في علم النفس ، والتي هي –على أساس- أنها ترشد المريض بشكل جيد وتساعده في الثقة بنفسه، وأنا لم ألحظ ذلك من خلال تجاربه علي، لطالما أردت أن تقف أمي عن أخذي إليه بشكل متكرر كلما أتانا يوم عطلة تكون فيه غير مشغولة، برغم أنه شاطر جداً لكن المشكلة التي لدي لا يقدر أمهر الأطباء على حلها.

أول حافلة توجهنا نحوها كان هناك قطيع من الركاب يتدافع أمام بابها، فانتظرنا ليدعونا سائق حافلة آخر، وإذ بأحدهم يصرخ من بعيد:

-توجهوا نحو تلك... نحو تلك... هناك...

وأشار بيده إلى حافلة زرقاء اللون، فصعدت وأمي الحافلة ولم يمض وقت على أن تم حشوها حتى امتلأت، لدرجة أن السائق طلب من الركاب أن يجلسوا أربعات، فيصبح صف المقاعد متسعاً لأربعة

بدلاً من ثلاثة كما هي طبيعة الحال، وتعال الآن لتواجه تناقض سائقي الحافلات، ففي مطلق الأحوال، ينقسم سائقي الحافلات إلى ثلاثة أنواع: أولئك الذين لا يريدون من الركاب أن يجلسوا أربعات حرصاً على المقاعد، وأولئك الذين يريدون من الركاب أن يجلسوا أربعات حرصاً على الغلة الوفيرة، وأولئك الذين لا يعيرون اهتماماً للركاب سواء أجلسوا أربعات أم لا، وهذا الصنف من السائقين نادر جداً.

دفعت أمي أجرة السير خمس ليرات، ليس كما هو الحال في حافلات (القطيلبية-كراج) والتي ندفع فيها خمساً وعشرين ليرة نظراً للفرق في المسافة.

وصلنا في غضون خمس دقائق إلى ساحة شباط، نزلت وأمي من الحافلة، ثم توجهنا مشياً على الرصيف إلى حيث عيادة الدكتور م. م. ك.

أمي ، بطبيعتها ، تحب كثيراً الوقوف أمام محلات الأحذية والألبسة، كحال كل النساء والفتيات، وأنا بطبيعتي أيضاً، أشفق عليها بسبب ذلك، فهي تخطط دوماً لادخار الكثير من المال وفي النهاية تنفق ما خططت لادخاره في شراء الألبسة والأحذية، ثم تتأسف على قلة الراتب أمام زميلاتها وصديقاتها في الحارة، وأنا أجد بالفعل أن راتبها قليل جداً، فعلى الرغم من كل تعبها فإنها لا تحظى إلا بعشرين ألفاً في الشهر، وهذا لا يكفي للبهرجة والسعادة والرفاهية، وإنما يكفي لقضاء الحاجة الإنسانية وحسب.

ها هي تجعلني الآن أقف أمام محل للألبسة التافهة، فأنا لا أحب الأحذية كيفما كانت، وأنظر لها من رؤوس مناخيري ، أشعر كأنني أنا الحذاء حين أقف لأراقب حذاء وأنا لا أملك ثمنه، فقمت بشد يد

أمي بقوة لنتابع في طريقنا إلى العيادة، وبصعوبة حتى نفذت أمي طلبي.

عندما وصلنا إلى عيادة م. م. ك لم يكن العرق يتصبب من وجهينا بعد، فقد كانت الساعة على جدار غرفة الانتظار تعلن الثامنة والنصف تقريباً، وهذا الوقت ليس وقت الحرارة الحقيقية بعد، فأزمة الحر تبدأ بعد الساعة الثانية عشرة، فيشتعل وجه الواحد منا بالحرارة ونصبح بحاجة لوعاء نهمر عليه العرق الناتج عن تلك الحرارة.

جلست وإياها على كرسيين سوداوين من تلك الكراسي في الغرفة، لم يكن هناك زبائن كثر، عجوز يقرأ مجلة وشاب يبدو في العشرين، بالإضافة إلى السكرتيرة التي تجلس على طاولتها تثرثر مع سكرتيرة العيادة المجاورة، والتي هي عيادة لدكتور جراح ، وفي الأوقات التي يكون فيها مشغولاً بالإضافة لانشغال م. م. ك فإن تلك السكرتيرة تأتي دوماً للجلوس مع سكرتيرة م. م. ك والثرثرة معها تقضية للوقت.

نظرت سكرتيرة م. م. ك الحسناء ذات الشعر الحلزوني إلى أمي وسألتها عن نوع الجلسة، فأجابتها أنها مراجعة وحسب، وقد أخذت الحسناء الشقراء سجل المرضى وصارت تدون فيه أنني أتيت لأراجع، على أساس أنها والسيد م. م. ك مهتمان جداً بالمرضى سواء بكيفية علاجهم أم بكيفية حضورهم للجلسات.

فجأة فتح باب العيادة وخرجت سيدة مغرورة ترتدي كعباً عالياً وتنورة حمراء قصيرة، ووجها يشبع إلى حد بعيد قرص البندورة من شدة التورم، وحين رأتنا أشاحت بوجهها بشكل متعجرف وخرجت من العيادة مطلقة العنان لتعاليها.

عند ذلك الحين دخل العجوز بعد أن وضع المجلة جانباً وأوحت له الحسناء الشقراء بذلك، وهو يطرق بعكازه الأرض، فإذا دخل أغلقت الحسناء الشقراء الباب وعادت إلى ثرثرتها. مضى من الوقت ربع ساعة فخرج العجوز ودخل الشاب ليبقى ثلث ساعة أو أكثر بدقيقتين. بعد ذلك أتيحت لنا الفرصة بالدخول.

عندما دخلنا تغير الجو تماماً، لوجود المكيف من جهة، ووجود عدد كبير من الورود المزروعة في عدة أوعية بلاستيكية مأخوذة من أقنية الكولا التي تباع في المتاجر من جهة ثانية. هذا الدكتور إذا صارحتك القول مجنون رسمي بتصرفاته، فقد قال لي ذات يوم أن هذه الطريقة جيدة جداً ومبتكرة لاستخدام الأوعية البلاستيكية التي نرميها في العادة، وقال عند ذلك حكمته المشهورة :

-كل شيء له قيمة، فلماذا نرميه؟!

ملاحظة: انتهت حكمته.

ومع أنني لم أجدها حكمة مثيرة إلا أن أمي مدحته بعينين متسعتين وابتسامة واسعة على ثغرها، وأنا بقيت جامداً لا حس بي ولا خبر، يا أخي حقاً إنها حكمة تافهة، وكل حكمه أعتبرها تافهة لأنني لا أستطيع تنفيذها، إما أن العيب في أنا أو أن العيب في م. م. ك نفسه لأنه لا يملك الأسلوب والطريقة التي يقنعني بها بتنفيذ حكمه، وأشك في الثانية، فهو على الرغم من أنه صغير وشاب ولا يبدو عليه الذكاء، إلا أنه حقاً ذكي وفهيم ، ويعد من نحبة الأطباء النفسيين ، وكم أشفق عليه لأنه وقع بين يديّ كمريض لديه! بل كم أشفق على كل إنسان تعرف علي في حياته!

-كيف حال بطلنا الجريء اليوم؟

قال الدكتور جالساً على كرسي مكتبه الكبير.

تقدمت أمي تمسك بيدي اليمين وجلست على كرسي من الكراسي المصفوفة خلف المكتب، وهي تبتسم وتقول:

-لا أظن أنه يتحسن يا دكتور! لم يتغير فيه شيء البتة!! وبصراحة وصلت لدرجة اليأس منه! لا أعرف!!

-هذا هو الخطأ، وصلنا إلى ذروة المشكلة، شعورك يا سيدتي باليأس لن يسمح لابنك بأن يكون جريئاً يوماً، ولن يمنحه الثقة بنفسه على الإطلاق، بل إنه قد يعطي نتائج عكسية، وفقط لأنك لا تملكين الثقة به!

-لا يا دكتور، لا تفهمني خطأ، لم أظهر له يوماً أنني حزينة!!

-أنت تقولين ذلك، لكن ملامح وجهك التي قابلتك بها الآن تقول لي عكس ذلك، أنا الذي قابلتك دقيقة للتو فكيف بابنك الذي يقابلك يوماً كاملاً!!

عضت أمي على شفتيها وحنت رأسها إلى الأرض خجلة، فتابع الدكتور ببسمة:

-سيدة سنا، ليست الأقوال وحدها هي التي تعبر عن الإنسان، الأفعال هي التي تعبر على وجه أكبر، لا يكفي أن تقولي لابنك أنك تثقين به، وإنما عليك أن تظهري له ذلك بكامل الصدق من خلال أفعالك، لا تقولي له أنا أثق بك فقط، بل أظهري له أنك تثقين به مع الكلام أيضاً. فالأفعال جزء من الكلام وإن لم تكن كذلك كان الكلام هباء.

ثم التفت إلي بوجه بشوش وخاطبني قائلاً:

-كيف حال بندق المشاغب لهذا اليوم؟

-جيد..

أجبته، ولم يكن صوتي متلعثماً، يبدو أنه دكتور ساحر أيضاً ويمتلك القدرة على التنويم مغناطيسياً كما هي المعلمة سمية.

-هل رأيت سيدة سنا؟ أين هي التعتعة في كلام هذا الشاب الرائع!!؟؟ أخبريني؟؟ بل إنني لا أكذب حين أقول أنه قد يعلمني في الكلام ، وقد لا أبدو أمامه شيئاً يذكر إذا ترك لنفسه عناء الحديث.

خجلت، وظهر ذلك على وجهي عندما احمر خداي.

-هكذا لن نتفق أبداً يا سيد مشاغب، إن بقيت خجولاً فإنك ستخفي ذلك الإنسان الرائع الذي يسكن بداخلك، ستقضي عليه، وستمنع نفسك من عيش كل لحظة جميلة من لحظات حياتك الثمينة.

-أعرف يا دكتور.. أعرف!! أعرف!! ولكنني لا أستطيع!!

-عندما تعرف المشكلة فهذا هو نصف الاستطاعة، والنصف الثاني يتجلى في حل تلك المشكلة، ومشكلتك أنك تعرف المشكلة وتخاف من حلها، هذا يصعب الأمر قليلاً ، ولكن تذكر أن الله يسلط القدر القاسي على العظماء دوماً، فهل رأيت الله يختبر التافهين؟؟!! لا، إنه يبحث عن العظماء دوماً ليوقعهم في المشاكل ويرى قدرتهم على حلها، فهل تخون الله يا مشاغب؟؟!!

لم أعرف ماذا سأقول له، فلم يعجبني قوله لي بأنني قد أخون الله. فبقيت صامتاً لدقيقة.

-بالإضافة للقواعد الأخرى والتي أعطيتها لك سابقاً، سأعطيك قواعد جديدة كتبتها اليوم في مقالة نشرتها على صفحتي الشخصية في فيسبوك، وبالطبع فإننا لا نريد حفظها فالحفظ مهمة الورق، وإنما نريد تطبيقها.

-حسناً... دكتور!!

مع أنني أشعر بأن هناك شيئاً سيئاً وراء ذلك.

-القاعدة الأولى : ((نبحث عن المشكلة، ونعرفها، ولا نخاف منها ثم نحلها)): فإذا خفت منعت كل شيء جميل من الحدوث، الخوف هو مصدر الشرور، هو مصدر عدم القدرة، وهو مدمر الذات الإنسانية، لذلك لا تخاف، ولكي تعثر على المشاكل يجب أن تملك الخبرة التي تأتي من دروس الحياة، أما لتحلها فيجب أن لا تخاف ، وأكرر، مصدر حل كل المشاكل ينبع من الإيمان وعدم الخوف.

القاعدة الثانية ((عندما نفقد الثقة بالآخرين، لا يجب علينا أن نفقد الثقة بأنفسنا أيضاً)) : على سبيل المثال ، أمك فقدت الثقة بك..

-أنا لم أفقد ثقتي بابني يا دكتور.. كل ما في الأمر أنني..

قاطعها مكملاً:

-يجب أن تعتمد عندها على نفسك، وأن تقول أنك قادر على فعل الأمور، حتى تثبت لأمك أن عدم ثقتها بك في غير محلها، الأبطال دوماً يقلبون ظنون الآخرين السيئة بهم ليثبتوا لهم العكس تماماً، فكن منهم.

القاعدة الثالثة : ((ظروف الإنسان ليست قدراً شريراً، وإنما هي هدية القدر، ومشكلة الإنسان أنه يخضع للظروف، ولكن إذا استغلها فسينجح)) لذلك فعلى أي شخص في الكون يظن أن القدر يتقصده بالألم والعذابات أن يعرف أنه مخطئ في ذلك، فالقدر هبة ربانية مباركة، ليس القدر شراً، ولا أذى، ولا مرض، ,إنما هو هدية يقدمها الله لمن يحبه على طبق من ذهب، فإما أن يستغل تلك الهدية أو أن يجعل منها مرضاً.

القاعدة الرابعة : ((لا يوجد شيء يدعى مرض، الإنسان هو الذي يصنع المرض)) فالله خلق الإنسان معافى في أحسن تقويم، وبسبب

غرور الإنسان فإنه يحول المعافاة إلى مرض بإرادته، فكن معافى دائماً وفكر بإيجابية لتقدر على الاستمرار في صحتك.

القاعدة الخامسة : ((الأذكياء يغيرون المستقبل نحو الأفضل بناء على الحاضر، والأغبياء يدمرون المستقبل والحاضر معاً بناء على الماضي)) وهذه القاعدة لها علاقة بالذكريات تحديداً، فالكثير من مرضاي يشكون لي من ذكريات الماضي التعسة والكئيبة ،و التي جعلتهم يكرهون حتى أنفسهم، ولكنهم في ضوء الحقيقة لا يعلمون أن تلك الذكريات بإمكانها أن تتلاشى بأمرهم وإرادتهم ورغبتهم، فيبقون معلقين في الماضي، فلا يشيعون الحاضر ولا يبنون المستقبل، وعند ذلك ينهار إنسانهم مودعاً إياهم، فكن دوماً طموحاً للمستقبل مفكراً بالحاضر مستغلاً إياه طيب الاستغلال، ولا تدمر نفسك بالعودة إلى الماضي، قبل أن أتابع وأذكر القاعدة السادسة.. بندق المشاغب.. هل تفهمني؟؟

-نعم .. نعم يا دكتور ولكن... ولكن..

قاطعني مكملاً:

-القاعدة السادسة : ((إذا ارتكبت الخطأ لأول المرة فهذا يعني أنك ارتكبت الخطأ، وأما إن أعدته مرة ثانية فهذا يعني أنك أنت المخطئ)) ، لذلك يا صديقي المشاغب.. نعم أنت يا بندق.. عليك أن تتعلم من الخطأ حال ارتكابه، لا أن تكرره، واسمح لي بأن أقول لك بكل جرأة ودون خوف منك أيها الصغير أنك أنت المخطئ، ودائماً تعيد ذات الأخطاء وتقع في ذات الدهاليز وترتكب نفس الحماقات.. ولو أنني مكانك لتعلمت من كل التجارب التي وقعت بها ، لو أنني مكانك لأصبحت أقوى فكلما مررنا بتجارب مؤلمة أصبحنا أقوى وأكثر قدرة.

-لكنني حاولت يا دكتور...

-اصمت.. أنت لم تحاول إطلاقاً، وحتى القواعد السابقة خفت منها كثيراً حتى اقشعر بدنك واحمر وجهك كفتاة شاحبة وتسمرت في مكانك كالعاجز الذي لا قيمة له..

مهلاً؟؟ لماذا يقوم الدكتور بتأنيبي بهذا الشكل؟؟ أشعر وكأنه تجاوز حدوده!!

أكمل بابتسامة:

-أجل، لذلك فسأعطيك الحل، يجب أن تجلس أمام المرآة المسكينة- والتي كثيراً ما نقحمها نحن الأطباء النفسيون في هذه الأمور السخيفة- يجب أن تجلس أمامها وتعترف لها بأنك مخطئ، تعترف بكل أخطائك أمام ذلك المسكين الذي يسكن المرآة، وتخبره بأنك ظلمته كثيراً، وقضيت عليه، وتعده بأنك ستحسن الأمور من جديد، وستقلب الطاولة وتدير اللعبة بحنكة وذكاء مجدداً، وهذه المرة ستكون أنت المنتصر.

-وما أدراك أنني سأنتصر؟؟!!

-ولم لا؟ ألست قوياً؟؟!!

-لو كان الأمر بيدي لقلت لك أنني قوي يا دكتور!! ولكن الأمر مختلف تماماً عندما تتحدث عن ضعيف مثلي!!

-أنت تستطيع الكلام، وتستطيع الثقة بنفسك أيضاً، وأكبر دليل هو ما قلته أنت للتو، لم تخطئ بلفظ حرف واحد، أي أن مشكلتك تقتصر على الثقة بنفسك وليس هنالك أي خطأ جسدي، فقط عليك الثقة بنفسك، أنت لا تفهم أن الثقة هي مربع الانطلاق لكل الحلول..

-ماذا إن جربت ولم أستطع؟؟!!

-عندها فكر بنقطة الانطلاق، مربع الانطلاق الساحق.. الثقة بالنفس.. وتأكد تماماً أنك لن تقدر على فعل أي شيء دون تلك الثقة.. فالإنسان لن يحصل له في حياته أكثر مما يثق بحدوثه، الثقة هي التي تلد الإنسان.

والآن سنبدأ مع القاعدة السابعة والتي ستكون مهمة للغاية كمثيلاتها : ((أنت خجول لأنك تنظر إلى نفسك على أنك حشرة إذا كنت أمام الناس وعظيم إن كنت لوحدك، فما عليك لتكون جريئاً إلا أن تقلب نظرتك هذه لتكون حشرة أمام نفسك وعظيماً أمام الناس، وبالطبع كن عظيماً ولا تخبر الناس بذلك، بل أظهر لهم عظمتك من خلال أفعالك وكلامك معاً، فلا تكتفي بالكلام ما دون الأفعال.

وإنني من خلال الكثير من أبحاثي على مختلف مرضاي عثرت في داخلهم على ذلك الإنسان الحشرة المكبوت أمام الآخرين، وفي نفس الوقت عثرت على ذلك الإنسان العظيم الذي يشعرون به تجاه أنفسهم وهم على انفراد. من ذلك أقول لك يا بندق المشاغب.. أجل.. عليك النظر إلى نفسك من هذا المنظور، وأكرر، أنت حشرة أمام نفسك وعظيم أمام الناس ،وليس العكس.

زفرت بعد شهيق طويل وتعمق في محاولة فهم ما قاله الدكتور لتوه، ثم قلت بملامح جدية:

-حسناً.. أيها الدكتور!! سأحاول!!

-شكراً لك يا دكتور!! وأتمنى أن يتمكن بندق من التجاوب مع هذه القواعد.

تقدم الطبيب إلى حوض الأسماك الذي كان معلقاً على الحائط من جهة اليمين، وأخذ علبة غذاء الأسماك الملونة بالأزرق وصار يرش

منها نثرات بيده على سطح الحوض، وبعد أن انتهى وجه نظره إلى أمي بطريقة فيها بعض التردد، وقال:

-سيدة سنا، لا أعلم إن كان لي الحق بسؤال كهذا، ولكن، لماذا أسميتموه بندق؟!

ثم حنى رأسه قليلاً لكنه رفعها بسرعة وأكمل:

-ألم تجدوا إلا هذا الاسم له؟!

نظرت أمي نظرات حزينة إلي حتى خلتها تفكر بشيء مأساوي، ونظرت إلى الدكتور وأجابت:

-إنها قصة طويلة، ولا أستطيع الإفصاح عن سبب تسميتنا له بهذا الاسم، ولكنني سأقول لك أننا لم نسميه بإرادتنا.

استغرب الدكتور، واستغرابي كان أكبر، حيث أنني ظننت أنهما اختارا لي هذا الاسم بإرادتهما وبكامل عقليهما، لكنني صدمت حين خرجنا من العيادة وطلبت من أمي إخباري عن السبب فقالت لي دون تردد في صوت مليء بالأسى:

-والدك يا بني، كان يلعب أقماراً في الكثير من أيامه قبل أن ننجبك، ويحضر إلى المنزل أسوأ البشر، آه كم عانيت منه! وحدث أن أحد أصدقائه لعب معه شرط أن يسمي ابنه الثاني بندق في حال فوزه على والدك، والدك كان واثقاً كل الثقة أن سيفوز، كما قال لي أيضاً، أنه كان من أقوى لعيبة الأقمار على الإطلاق، لكنه خسر في النهاية، وانتهى بك المطاف بهذا الاسم.

يا لها من أم!! وانتهى بي المطاف بهذا الاسم!! هه! يا للسخف!! لعيب أقمار وسكير من الدرجة الأولى من شأنه أن يحدد لي اسمي! حسناً، على أية حال، حتى لو كانت هناك قدرة لأحدهم أن يختار لي

اسماً فإنني لن أمنح أحداً على وجه الأرض حرية اختيار أفكاري وأخلاقي، إن كان اسمي يحدد من قبل لاعب أقمار فأنا أفضل أن أكون بلا اسم.

19

من كتاب مذكراتي، أو ما أصفه بكتاب أفكاري وعواطفي التي لم أستطع قولها لأحد، أخذت لك هذا النص :

"الذكريات المؤلمة ، الأحقاد على من أساؤوا إليك و الماضي المؤلم، جميعاً لها وقع على قلبك وعلى روحك وعلى عقلك أكثر من وقع القنابل الذرية والمفاعلات النووية، خذني أنا على سبيل المثال البائس، فإنني لم أخلق في حياتي إلا لأتعذب وليتم نهشي كأنني لحم نيء من حق أي كلب أن ينهش منه، ويملك أي عابر سبيل وابن زنى الحرية الكاملة في الدوس على قلبي وحفر ذكريات قذرة بدماغي، فقط لأنني ضعيف وخجول، لماذا أقول عن نفسي أنني خجول؟ أشك أنني خجول فقط! فالخجل لا يعني أن لا أستطيع الكلام نهائياً، وإنما يعني التردد قبل الكلام، وفي حالتي أنا، أود إلى حد باهر أن أقول لك أنني لا أعاني من الخجل، بل أعاني من الرهاب الاجتماعي، أو رهاب الجمهور أو لا أعلم، أشك أن الدكتور م. م. ك وأمي لا يعلمان بذلك، إنهما يعلمان ولكنهما لا يخبرانني ، وأظن السبب حرصاً على مشاعري وإكمالاً لخطة الدكتور كي يجعلني أثق بنفسي أنني لست مريضاً.

والمشكلة الأكبر، أن أغلب الناس يكرهون الضعيف حتى ولو كان خيراً، ويحبون القوي حتى ولو كان شريراً! فهذه مصيبة مع الناس، وأيضاً، بالإضافة إلى ذلك، فإن الفتيات يكرهن من لا يملك العضلات حتى ولو كان خيراً، ويحببن من يملك العضلات حتى ولو كان شريراً، وهذه مصيبة مع الفتيات!

أنا إنسان أيضاً!! ليس من حق الناس ولا الفتيات الحكم علي من عضلاتي ومدى ضعفي وعجزي!! قد أمتلك أفكاراً أنبل من أفكار الناس أو أنبل من أفكار الفتيات! وقد أملك أخلاقاً أكثر من أخلاقهم أو أخلاقهن، وقد يكون لدي قلب أطيب من قلوبهم أو قلوبهن! فهل الحكم علي يأتي من أنني أتعتع بلفظ اسمي وحسب! هههه! بالله عليك ما هذا السخف!!؟؟ وماذا يعني أنني أتعتع بلفظ اسمي!؟ هل هذا يعني أنني لست إنساناً مثلك ولا حق لي بالحياة سعيداً كما تسعد بحياتك أنت؟! ثم إن الأشياء المثالية والأشخاص المثاليين لا يعجبونني، باختصار لا يستهويني أي شيء إن لم يكن فيه عيب واحد على الأقل، عندها يمكنني الشعور بجماليته، أي أن خجلي لن يجعلني شيطاناً أو ابن زنى.

ولكن، على كل حال ، أن يكرهونك لأنك لا تتبع القطيع خير من أن يحبونك لأنك قائد القطيع، ومن علامات النفاق أن تدعم شخصاً شريراً وتقف إلى جانبه فقط لأنه قوي ، ومن علامات الصراحة أن تدعم شخصاً خيراً وتقف إلى جانبه حتى ولو كان ضعيف ، بالطبع لا أقول لك أنني الوحيد الخير والطيب والعظيم، لكنني أطلب منك أن تكون إنساناً، أجل يا سيدي أنت الذي تقرأ هنا، أياً كنت، سواء أكنت معلم مدرسة أم دكتوراً أم بائع بندورة أم شحاذاً أو حتى عاهراً، افهم أن هناك إنسان يجب عليك أن تحترمه حتى لو كان ضعيف، حتى لو كان خجول، حتى لو كان اسمه بندق".

20

إذا سألتني عن حلمي، أقول لك أن أعيش في كوخ بعيد عن مسامع الناس وأنظارهم وتوجهاتهم، يبعد مئات الكيلومترات عن مواطن ومساكن البشر، تلك المساكن البائسة التي لا قيمة لها إلا بمقدار المال المصروف عليها ، وأما الكائن البشري فهو أرخص شيء في تلك المساكن.

وأن أعيش في ذلك الكوخ في غابة مليئة بالحشائش والعقارب والأفاعي، فهذا أفضل بكثير من العيش في أماكن حشائش النفاق الإنساني والأقرباء العقارب والأصدقاء الأفاعي، باختصار، أفعى على شكل حيواني زاحف خير من أفعى على شكل بشري، وعقرب على شكل حشرة خير من عقرب على شكل إنسان، وحشيشة على شكل نبات خير بألف مرة من حشائش النفاق في نفوس الناس.

وأن أعيش ، بالإضافة إلى ذلك، مع فتاة تحبني من كل قلبها ، تشعرني بأنني إنسان، تقول لي أحبك لأنك تتعتع في الكلام، تعشق فمي عندما يرتعش قبل النطق، يستهويها عقلي وتشغف بروحي كيفما كانت، وتقول لي دوماً كلمة أحبك مناطحة بها السماء والسحاب، لا تخبرني بأنني عاجز، لا تقول لي أنني ضعيف الشخصية ، تحبني كما أنا وكفى!

ولا أريد –سيدي- أن ألمح أي أثر للبشر في ذلك المكان، فقط أنا والفتاة التي تحبني وأحبها، والحشائش النباتية والعقارب الحشرية والأفاعي الزاحفة.

فليذهب البشر المنافقون السوقيون إلى الجحيم!

ونسيت أن أذكر لك أنني أحب أن يكون اسمي "شاهين" بدلاً من "بندق".

ـــــــــــ.

21

هل تعلم أنني أمتلك عدداً هائلاً من الأصدقاء الذين أحبهم

ويحبونني، أهتم بهم ويهتمون بي، أفهمهم ويفهمونني ويقبلونني كما أنا! وهم الذين لم أرهم حتى الآن!

مهما حاولت أن تغير رأيي، لم أرهم! لم أرهم ثم لم أرهم! ولن أكذب عليك أو أنافق.

الصداقة هي فن الإحساس بذات الآخر، بحيث تشعر به وكأنه أنت، ونادراً جداً أن تجد ذلك الصديق الذي يحترمك، يقدرك، ويستعد لأن يقبل كل عيوبك ، ويمكن له أن يرى فيك ذلك الإنسان السعيد حتى في ذروة يأسك وألمك، ويمكن له أيضاً أن ينتشلك من بيئة الألم التي تقبع فيها، أو حتى أن يأخذك إلى عالم آخر لم تسمع به من قبل، ولكن ذلك في حالتي، لن يحدث.

سأقول لك لماذا، أولاً لأنني أمتلك من العيوب ما يكفيني لجعلي إمعة، وثانياً وهو الأهم، أنه من المستحيل وجود هذا الصنف من

الأصدقاء، أولئك الذين نطلق عليهم أصدقاء حقيقيين، فالصديق ليس صديق المادة والمصلحة والكسب أو التسلية وحسب، بمعنى أنني أصاحبك لأتسلى معك أو أن تعطيني شيئاً ما يحقق مصلحتي فقط، بل إن الصداقة، أقرب لأن تكون روحية سامية بعيدة عن هذه الأخلاق الدنيئة، وأكثر شعب رأيته في حياتي يقدر قيمة تلك الصداقة هو شعب اليابان.

-أنا آسف جداً من أجلك، فلم أستطع أن أحميك بشكل جيد كما كنت أريد أن أفعل، لم أستطع أن أكون إلى جانبك حتى النهاية، لم أستطع مجرد حماية إنسان عزيز علي.. لم أكن قادراً على إسعادك بالشكل الذي أردته أن يكون، ولم أتمكن من رسم البسمة على وجهك!! صدقني آسف!! كنت أريد أن أحقق لك ما تريد!! كنت أريد أن أجعلك تثق بنفسك أكثر!! كنت أريد أن أفخر بك أمام الجميع!!

هذه هي الكلمات التي يقولها الياباني لصديقه في حال إن أساء إليه ولو إساءة صغيرة، لا تذكر حتى.

وأما نحن، العرب بشكل عام، نجهل قيمة الصداقة الحقيقية، ولا نقدر الإنسان كيفما كان، نبحث عمن يحقق غاياتنا وما نريده فقط مع تجاهل ما يريده هو، نريد أن نطغى بـ لا إنسانيتنا على الجميع دون استئذان أو حتى دعوة منهم لنا في ذلك، وإلى حد ساذج نعتبر الصداقة مجرد علاقة عابرة في الحياة فنمضي أيامنا مع أناس ضيعوا وقتهم معنا على الفاضي، في حين أننا نعتبرهم مجرد أشخاص عاديين لا بد من وجودهم في الحياة العملية، بمعنى آخر: مضطرين للحديث معهم والجلوس معهم وارتكاب الأخطاء معهم فقط لأن الظروف حكمت عليهم أن يكونوا معنا، وأما أن نفكر بالشكل الرائع فلا وألف لا، وما هو الشكل الرائع؟ أن نفكر مثلاً في أن القدر هو الذي جمعنا بهم لأنه يقودنا إلى ذواتنا معهم، أو أن نفكر

في أنهم وجدوا بحياتنا ليسعدونا، ويقدموا أجمل ما لديهم من أجلنا ونقدم أجمل ما لدينا من أجلهم، هذا التفكير يا عزيزي في بلاد العرب معدوم.

معدوم! لا تناقشني فأنا أكره النقاش الذي لا يجدي! ولا تقل لي إن الإنسان الرائع موجود سواء أكان في اليابان أم لدى العرب، سأحضر لك المثال القاطع على صدق كلامي، وهو أنا، شخصيتي التي قضوا عليها ، إنساني الذي همشوه ودمروه وحطموه، هؤلاء هم ما تسميهم أنت بأصدقائي!! فبالله عليك أخبرني ما هذا السخف؟؟!!

يا للعجرفة!!

هل أنت مصر على إثبات رأيك المخالف لرأيي؟؟!! حسناً، سأخبرك بأنك مخطئ في ذلك، وأود إلى حد كبير أن أقول لك أنني أعتبر جميع أولئك الأوغاد والحثالة الذين عرفتهم في المدرسة وفي المجتمع أولاد زنا، وطبعاً أقولها بضمير مرتاح، أتمنى جمعهم جميعاً في ساحة كبيرة للتعذيب فقط لأجعلهم يدفعون ثمن ما فعلوه بي، سبق وأن قلت لك أنهم قتلوني وأنا على قيد الحياة مليون مرة، فالموت على قيد الحياة شيء أشد وقعاً على القلب والروح والعقل من موت الإنسان مرة واحدة، الموت لمرات أصعب من الموت مرة، أصدقائي قتلوني، لم يترددوا في ذلك يوماً واستمروا في القيام بقتلي، حتى لو رأوني مشمئزاً من أفعالهم وكارهاً لها، بل وإنهم يتمادون في القيام بها عندما يعلمون أنني أكرهها وأنها تضعفني، استغلال عينك هيك عينك!!

وإنني، حقاً إنسان حقود، فيصل الأمر بي لكي أتمنى إراقة الدماء منهم وتصويرهم وهم عراة ونشر صورهم في كل مكان، وأعيد مكرراً: بضمير مرتاح.

حتى لو قمت بذلك فلن يشفى غليلي منهم ، بل إنني سأطلب من الرب مبتهلاً داعياً أن يقدم لي ذات يوم سوطاً ذو قدرات تعجيزية ، ويكون هذا السوط مخصصاً لعقاب من أساؤوا إلي في حياتي، وأريد أن يكون السوط مجهزاً بالكهرباء لأصعقهم وأستلذ بأصوات ألمهم كما كانوا يستلذون بأصوات ألمي، أو أن يكون سوطاً قاذفاً لقنابل ضوئية تعمي عيونهم عن الطريق كما أعموا عينيّ عن طريقي.

22

مستودع بيت جدي يقع بجانب المنزل في أرض الزرع، إلى الجهة الشرقية من يمين المنزل، وهو غرفة متوسطة المساحة غير مدهونة ، فقط مليسة ولها باب قديم مهترئ من الخشب، بحيث يمكن لأي شخص يمر أن يفتح الباب بسهولة، وفي هذا المستودع عدد لا يستهان به من العقارب، ليس هذا وحسب، أذكر أن أعمامي قتلوا فيه أفعى سوداء بطول المترين.

لماذا أحدثك عن المستودع؟ تتساءل!! سأخبرك أن لدي قصة معه، وهي بالطبع قصة حزينة من تلك القصص التي لا تريد سماعها

بالتأكيد عني، كوني إنسان ضعيف بنظرك، كما أكون ضعيفاً بنظري أيضاً.

حدثت القصة في آخر شهر من العام الدراسي للصف السادس، وكانت المعلمة زمرد تسمع للطلاب بالاجتماعيات ، وتحديداً بدروس تاريخية صعبة جداً تخص الفصل الثاني كاملاً، فلم أستطع حفظ شيء منها، وعند ذلك قضبت زمرد حاجبيها ونظرت إلي في سخط وقالت:

-بما أنك لم تحفظ الدرس يا بيدق، فإنني مضطرة مع كامل الأسف لأن أضربك بعصا الخيزران.

-لـــ...لـــ.. لا لا، أرجوك، أ أ أرجوك يا آنسة..

-هاهاهاها، ليس هنالك وقت لتتعتع فيه الآن، فانظر إلى الصف، إنه يعج بالطلاب الذين لم يسمعوا بعد.

ضحك الجميع، سخرت مني عصابة الصف من جديد.

أخذت عصا الخيزران من على الطاولة وطلبت مني مد يدي، فلم أفعل ذلك للمرة الأولى، طلبت مرة ثانية ولم أفعل، ثالثة ورابعة وما زلت أقف حانياً رأسي إلى الأرض لا أقبل بالضرب.

-اسمع يا هذا، ليس لدي الوقت الكافي للتعامل مع أمثالك، لذلك مد يدك بسرعة وإلا فسأتصرف تصرفاً غير محترم أبداً، صح لما خطأ؟

لم أمد يدي، سالت دموعي في شيء من التردد.

-هيا مد يدك، أنا معلمتك وأطلب منك مد يدك، قم للمعلم ووفه التبجيل..

ساد الصمت قاعة الصف لدقيقة.

زمرد تحدق بي ملحة، وأنا أحدق بالأرض وأبكي.

-حسناً، إن كنت إلى هذه الدرجة ضعيف ولا تمد يدك، فسأعرض عليك عرضاً جميلاً، إما أن تفتح يديك وتأكل نصيبك من العصي، صح لما خطأ أو أن تكتب درس التاريخ خمسة عشر مرة ، وسأراه في الحصة القادمة ، أي بعد الغد.

-نعم، نعم موافق!!

-حسناً إذاً، انقلع إلى مقعدك..

وعند انتهاء اليوم عدت إلى المنزل أفكر في أنني قد لا أتمكن من كتابة تلك الدروس كلها في يومين، ذلك إذا حسبت هذا اليوم والغد، أيضاً، لدي في الفصل الثاني عشر دروس تاريخ، كيف سأنهي كتابتها وكل درس يتكون من خمس صفحات وهناك دروس فيها سبع صفحات!!؟؟ كما أن لدي حفظاً للدروس اليومية!! يبدو أن طلب زمرد كان صعباً للغاية، تلك الآنسة القبيحة وقليلة التهذيب.

لم أستطع خلال اليومين تنفيذ طلبها التعجيزي، وفي ذات الوقت لا أخطط لمد يدي لتأكلها عصا الخيزران، فما الحل؟؟!! لم أجد حلاً إلا الاختباء في مستودع بيت جدي ، وقد فعلت ذلك ، حيث ضبطت ساعة المنبه قبل موعد استيقاظي المعتاد بساعة، وهربت من المنزل كي لا يكتشفني أحد واختبأت في المستودع، كان الجو غائماً وتبدو السماء في حالة استنفار.

المستودع ما زال كما هو، آثار الوحل والزيت على الأرض، وعصارة الزيتون القديمة كانت تتربع في الزاوية من اليسار، والخزانة المهترئة الأثرية، وأيضاً، تلك الدمية التحفة التي انقرضت صناعتها منذ سنين ، مع أنها صناعة بلدية، لأن عمتي بشرى قالت

لي أنها تريد الاحتفاظ بها لأنها من صنع أمها-جدتي، فلم يعجبها أن تحتفظ بها إلا في هذا المستودع البائس وفي الخزانة الأثرية.

تذكرني هذه الدمية بالشبح الذي يكون مغطى برداء أبيض وعليه ثقوب مكان العينين ، وهذه الثقوب هي الشيء الوحيد الذي يظهر فيه، هذا الشبح أكثر الأشباح التي تخيفني، وكثيراً ما حلمت به أثناء نومي.

على أية حال، جلست منكمشاً على نفسي حاضناً إياي على الأرض بالقرب من تنكة زيت، والدست كان بجوار التنكة، عليه الكثير من الشحوار وكانت هناك عنكبوت سوداء مرعبة واقفة عليه لا تتحرك كأنها جبل شامخ، فأبعدت جسمي قليلاً عنه، ولم أفكر لحظة بالتقرب من تلك السيدة العنكبوت، فهي لا تطيق المتطفلين ولا تستحب الخجالى أمثالي، فغضيت نظري عنها.

سرعان ما بدأ المطر ينهمر، أظن أن هناك ساعة قد مضت، وصارت أمي تصرخ لي وشاركها أبي، وحدها أصواتهم وأصوات المطر كانت مسموعة، لكنني لن أخرج لهم، ولا أفكر في الخروج قبل أن تمضي ساعتين على الأقل، حتى لا تتاح الفرصة لأمي العظيمة بأن تطلب مني الذهاب مجدداً إلى المدرسة، خاصة وأن حصة التاريخ ثاني حصة، على الأقل أن أنتظر ساعتين، ساعتين فقط.

ربع ساعة، وتمكن أخي من إيجادي، لولاه لما وجدوني، كم أكرهه!! لقد عثر علي هذا الحقير، أشك أنه سيتركني بحالي.

تقرب مني وكنت خائفاً منه إلى أبعد حد، وكان غاية في الجدية، ثم صرخ:

-أنت هنا!!

ونادى أبي وأمي:

-أبـــــي.. أمـــــــي.. إنه هنااااا في مستودع العقارب!!

نظر إلي نظرات قاسية جداً، وقال:

-هل أنت غبي إلى هذه الدرجة!! ألا يكفي كل ضعفك وسذاجتك!! هل تريد أن تكون غبياً أيضاً!! من يجلس هنا في مستودع العقارب والأفاعي؟؟!!

تقرب أكثر مني فصرخت خوفاً منه، صفعني على وجهي بقوة.

بكيت.

دخل أبي وسحبني بقوة من يدي حتى قمت عن الأرض ، وبسرعة صار يركض معي ، ولحق بنا أخي الوغد.

حين وصلنا استقبلتني أمي بأصوات جهنمية كأصوات الوحوش، وأبي كان محتداً جداً في تعامله مع الموضوع، أما أخي فأطلق الكثير من العبارات التي شتمني بها، حتى أنه ذكر أنني عاهر وإمعة.

-بحق الرب ماذا تفعل في المستودع!!؟؟ هل يمكنك إخباري إلى أي حد ستصل!!؟؟

قالت أمي.

-لن يصل إلا إلى الجحيم التي ستحرقه.

قال أخي.

-يوماً ما سأتبرأ من هذا الولد الذي يكاد يقتل لي أعصابي ويرفع لي ضغطي، تكفلي به يا سنا، وإلا فسأفعل شيئاً لم أفعل مثله من قبل..

-حاضرة يا أبود عباد، لا تقلق...

أخذتني أمي وأجبرتني على ارتداء ثيابي، كنت سأخبرها عن سبب عدم رغبتي في الذهاب إلى المدرسة، ولكنني لم أفعل، بل نفذت ما أرادت وذهبت متجهاً في طريقي إلى المدرسة.

مكثت قليلاً عند موقف الباص منتظراً مرور ساعة ونصف ، حتى ذهبت إلى المدرسة ووصلت عند الفرصة ، ولم يسألني أحد لماذا تأخرت إلا بعد دخولي المدرسة، ولم يتقبل المدير الأمر بصدر رحب ، بل تكلم مع أبي عبر الهاتف، وذكر بعد إغلاق السماعة أن أبي سيضربني.

بالفعل، عندما عدت إلى المنزل ضربني أبي بديه العاريتين، وأقول لك بصدق أنه لا يصبح بطلاً في الملاكمة إلا عندما تسمح له الفرصة بضربي.

23

الأورغ! أجل، إنه الأورغ! الشيء الوحيد الذي تمكن من أن يفهم ما بداخلي، ولو كان قليلاً. إلى حد كبير كنت أحبه. أشعر بشيء من داخلي يخرج كلما لامست يدي أصابعه، لكنني بصدق، لا أحب العزف على البيانو. تسألني عن السبب، أقول لك أن ذلك واضح جداً، إنني أحب سماع عزف البيانو، لكنني لا أستطيع العزف عليه، فذلك يبكيني أكثر، يزعجني أكثر، يجرحني أكثر، ويجعل مني ضعيفاً يمشي على جروحه أكثر فأكثر. مما أستطيع قوله لك أنني أحببت الأورغ لأنه مفرح، لقد اشتريت واحداً، أجل اشتريت واحداً

رغم إصرار أبي أن لا أشتريه. كان ثمنه خمسة عشر دولاراً فقط! مضحك! إنه للتدريب فقط ولكن شكله يشبه شكل الأورغ الأصلي، وكان مفيداً في الاستماع. كنت كلما عدت من المدرسة شغلته وشرعت بالعزف عليه: عزفت أولاً ليلة عيد بعد استعانتي بنوطة أعطتني إياها معلمة الموسيقى. ثم عزفت معزوفة مشهورة نسيت اسمها، غالباً لا أتذكر أسماء المعزوفات. أوه لقد تذكرت! عزفت حلوة يا بلدي! وكانت غاية في التناسق رغم أنني عزفتها عن طريق الاستماع، وشعرت أن هناك شيئاً غريباً في نهاية عزفي، ظهرت وكأنني أشذ عن المعزوفة الأصلية.

أغلق النوافذ، أغلق الباب بالمفتاح، وأخفض صوت الأورغ إلى أقل درجة، وأبدأ العزف. كان ذلك يحييني، ينتشلني من بيئة الحقد التي أعيش فيها: كل حقدي على أولئك الساقطين يهبط بكل ما فيه على أصابع الأورغ. قمت بتأليف معزوفة بمفردي، سأكتبها لك هنا إن كنت تود تجربتها:

دو ري مي دو ري مي (إعادة مرتين)

درجة واحدة لكل اصبع

ري مي فا ري مي فا (إعادة مرتين)

نصف درجة لكل اصبع

فا صول لا فا صول لا

مي فا صول مي فا صول (إعادة للسطرين مرتين)

جميع الاصابع ربع درجة إلا (لا و صول) فإنها تكون درجتين.

سأكتفي هنا، هل تعلم لماذا كتبت لك المعزوفة بهذا الشكل؟ لأنني لا أتقن التلحين على النوط، ذلك صعب جداً وهناك الكثير من

العلامات التي لا أعرفها، في الحقيقة إنني لا أعرف إلا مفتاح الموسيقى. لكنني إذا عزفت معزوفة أعزفها بأقوى شكل لها.

دعك من هرائي هذا، سأخبرك كيف قام أهلي بدعمي، وكيف ساعدني أقربائي على أن أتحطم، على أن أنزوي وأنكمش دوماً على نفسي: ذات يوم قررت إسماع أهلي على عزفي، فجلس أبي يقرأ كتاباً وجلست أعزف، وهو، لم يكلف نفسه بسماع شيء أبداً، وعندما انتهيت لم يقل كلمة واحدة، فسألته عن رأيه فأجاب كأنه انتبه للتو "آه! جيد!" وفقط! لم يقل شيئاً آخر! لم يخبرني أين كنت رائعاً وأين لم أكن كذلك، لم يخبرني عن نوع الأغاني التي يفضلها. شعرت أنني لا أشعر.

وذات يوم آخر: دعوت ابن عمتي الضخم أبو العضلات إلى غرفتي لأسمعه عزفي، فلم أكد ألمس أصابع البيانو حتى خرج من الغرفة والغيظ يملأ وجهه، والحرقة على شفتيه كأنه لم ير في حياته أورغاً ولم يسمع يوماً موسيقى، كان الحقد والحسد يعميان قلبه، شعرت بذلك بكل معاني الكلمة، والقلب ليس كاذباً، خاصة عندما يشعرك بمشاعر من هو إلى جانبك. كانت دمعتي آنذاك قد سبقت اصبعي الثانية في العزف، لكنني عزفت بما أوتيت من قوة، أردت أن أكره نفسي أكثر وأبكي أكثر فقد أرتاح. قرأتها ذات يوم على التلفاز أن من يبكي ويتألم ويعزف يرتاح نفسياً.

وعمي الحقير، عندما رآني أعزف يوماً وقد دخل غرفتي عمداً، كان سيرمي علي بأشواك كبيرة، في الحقيقة شعرت بذلك، شعرت بالشوك. بالهزيمة. بالحقد في عينيه. شعرت بالكراهية، بالرغبة في إقصائي. ولكنه قال: "رأيت عند ابن معين فتى .. في الحقيقة كان حفيده.. يعزف بشكل أفضل بكثير من هذا.. لديه شرر في عينيه، وكان عزفه مؤثراً".

وبعد قوله لذلك، حنى ظهره، وذهب. أردت أن أقول له: وماذا يعني لي معين وحفيده الآن؟ أنا! ما رأيك بعزفي أنا! هل أثرت بك؟ هل شعرت بشيء ما في قلبك؟ لكنني كبت في نفسي ، ولم أقل شيئاً. أغلقت الباب وارتميت على سريري دون حراك روحي، دون حراك جسدي، شعرت برغبة في التمرد عليهم جميعاً، أردت أن أنتمي إلى جماعة إرهابية في الحال، لكي أقتل كل هؤلاء الذين لم يجعلوني أعيش لحظة واحدة جميلة، هؤلاء الذين خربوا كل ما بداخلي، وأكبر الجرائم تلك التي يقضون فيها على الإنسان من داخله، من أحشائه، فلا يستطيع العودة إنساناً.

كل ما في داخلي الآن يصرخ: أريد أن أخرج، وكل ما حولي يصرخ علي: لن أدعك تخرج، فأنا من يقف عليك، وأنا من يحجب عنك النور الذي تسعى إليه. تأكدت ذات يوم أن الإنسان آلة إما أن تكون شريرة إلى أبعد حد أو أن تكون طيبة إلى أبعد حد ممكن. وذلك ما كان يدعوني إلى الغثيان من هذا الوحش الذي خلقه الله، لم أرد أن أكون إنساناً بعد كل ما عرفته عن الإنسان.

استطعت، إلى حد ما، الإحساس بأشياء عميقة ، كما يفعل فيودور دوستويفيسكي، وكما يفعل جبران خليل جبران، شعرت أنني جزء منهما، وبعد الموسيقى والعزف كانا يشغلان كل تفكيري وحياتي، كنت أعبدهما لأنني أعبد الحرية، وكنت أتحرر بأفكارهما لأنني أعبد الحق. أدركت بعد قراءتي لكتاب "الأخوة كرمازوف" لدوستو (اسم دلعي له) ، أن هناك الكثير من الأشياء التي لا يعرفها المجتمع، وإذا عرفها فإنه ينافق بشأنها، وأدركت أيضاً كم كان تفكيري صائباً عندما أردت التحرر من عقليات أهلي، وقرأت كتاباً لجبران لن أنساه في حياتي من شدة روعته، إنه "الأرواح المتمردة" ، لم يكن هناك إنسان في نظري كجبران ، شعرت بكل لحظة من

حياتي ترتفع إلى أعلى الدرجات السماوية، بشعوري أن هناك أشخاصاُ كجبران في هذا العالم قررت عدم التفكير في الانتحار مجدداً، لكنني فشلت.

الإدراك خطير، والمعرفة مؤلمة، واليقين مميت: تمنيت: ليتني لا أملك أياً من الثلاثة السابق ذكرهم، لكنني أفضل الذكاء والألم على الغباء والسعادة. إنني متناقض أيضاً، لكنني أثق بشيء واحد وهو عدم ثقتي بنفسي.

بإدراك أن الإنسان الناضج يكون كذلك عندما يكبر عقله، فسأقول لك أنك عندما تشعر فجأة أن كل ما حولك خاطئ، حتى لو كان الجميع يفعلونه، فأبارك لك أنك أصبحت الآن ناضجاً. حسناً، ما أرهقني أنني نضجت مبكراً جداً. فلم يكن لدي صديق يشاركني أفراحي وأتراحي، مع أن الأولى نادرة, ولم يكن هناك فتاة تقع في حبي، والأيام التي يفترض أن تكون الأجمل كانت الأقسى.

خاتمة بندق

يمكنني الآن، إلى حد ما، أن أقول أنني ارتحت قليلاً بالإفصاح عن القليل من مشاعري لك. سيدي، قد تكون أكثر فهماً مني أو أكثر وعياً أو أكثر شجاعة، والأخيرة مهمة، لكن لا تفكر بأنني سأتقبل نصائحك القاسية، لقد جربت كل شيء، وما من شيء يستطيع أن يجعلني أثق بنفسي. ولك الحكم.

بندق

خاتمة الكاتب

كثيراً ما شعرت كأنني بندق ، وأنا أكتب عنه، وألتمس كل جزء من حياته كأنني أنا هو، وهو أنا. ولكن، حقاً أحياناً تعجز الكلمات عن وصف المعاناة مهما كانت الأخيرة بسيطة في نظر الناس، والحق أن الإنسان نفسه هو من يدرك ألمه، لا غيره، إذ يستعصي على الناس فهم آلامهم أحياناً فكيف بأن يفهموا آلام الآخرين..!

ما ورد في الكتاب، هو مذكرات أو قصص من حياة بندق، لكنها لا تعني أنني كتبتها بعقليتي ، أبداً، بل تعني أنها بعقلية بندق، ممزوجة بأسلوبي في طرح أفكار ومشاعر عقليته. فتذكروا أنني قد أكون

شخصاً مختلفاً تماماً عن بندق. وأنني كتبت عنه لأنني أحبه، فقط لا غير . وأردت إيصال شخصه إلى الناس.

المهلب مرهج

تمت